تيسير الوصول

شرح

ثلاثة الأصول

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي

تَيْسِيرُ الوُصُول
شَرْح
ثَلَاثَةِ الأُصُول

ⓒ عبد المحسن بن محمد القاسم، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبد المحسن بن محمد
تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول/ عبد المحسن بن محمد القاسم -
ط ٢ - الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٢٢ ص: ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ - ٠٠٣٧ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - العقيدة الإسلامية أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١١٨٨/ ١٤٢٩

رقم الإيداع: ١١٨٨/ ١٤٢٩
ردمك: ١ - ٠٠٣٧ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٢٩ هـ

إذا رغب إمام المسجد قراءة هذا الكتاب على جماعة المسجد، أو رغب رب الأسرة قراءته على أسرته، أو غيرهما، فقد تم تقسيم هذا الكتاب إلى مجالس، كل مجلس ينتهي بهذه العلامة *

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فإن «**ثلاثة الأصول**» للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ، من أنفع المتون المؤلفة في أصول الدين، وقد تلقاها طلبة العلم والعامة بالحفظ والمدارسة، لكونها قاعدة في العقيدة، ولقد وهب الله عز وجل الإمام العلامة محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ حسن التصنيف، ودقة الترتيب، وقوة الاستدلال مع جزالة اللفظ وجمال البيان، وقد جاءت ثلاثة الأصول شاملة لذلك كله، قال عنها حفيد المصنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ: «**فما أعظم نفعها على اختصارها لطالب الهدى**»[1].

موضوع ثلاثة الأصول

ففيها الأصول التي يجب على الإنسان معرفتها، وهي معرفة العبد ربه، وأنواع من العبادة التي أمر الله بها، ومعرفة العبد دينه، ومراتب الدين، وأركان كل مرتبة، ومعرفة النبي ﷺ في نبذة من حياته، والحكمة من بعثته، والإيمان بالبعث والنشور، وركنا التوحيد وهما الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

الشيخ محمد ابن عبد الوهاب يلقن الطلبة والعامة ثلاثة الأصول

ولكونها قاعدة في العقيدة فقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ يلقنها الطلبة والعامة، قال الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ: «**وقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: يلقن الطلبة والعامة هذه**

---

(١) الدرر السنية ٤/ ٣٣٨.

الأصول، ليدرسوها ويحفظوها، ولتستقر في قلوبهم، لكونها قاعدة في العقيدة»[١] . وكانت تقرأ على الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ ويشرحها كل يوم[٢] .

رسائل صدرت بها ثلاثة الأصول

وقد صُدِّرت ثلاثة الأصول بثلاث رسائل نافعة عظيمة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ هي قواعد في الدين:

الأولى منها: في وجوب العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه.

والثانية: في توحيد الربوبية، والألوهية، والولاء والبراء.

والثالثة: في بيان التوحيد وضده.

وبذلك جاءت ثلاثة الأصول مع الرسائل الثلاث عقداً مكتملاً في أصول الدين، ودرة مضيئة للعابدين الموحدين، قال عنها الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ: «**هذه رسالة مهمة في العقيدة**»[٣] .

الولاة يأمرون العامة بتعلمها وفهمها

ولأهميتها وغزير نفعها وحاجة المسلم إليها كان العلماء يحثون الولاة لإلزام الناس بتعلمها وفهمها، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ: «**فيَلْزم الأمير أن يأمر جميع المدرسين وأئمة المساجد، بالحضور عند من يعلمهم دينهم، ويلزمهم القراءة فيما جمعه شيخنا ـ رحمه الله ـ في كتاب التوحيد، من أدلة الكتاب والسنة التي فيها الفرقان بين الحق والباطل، فقد جمع على اختصاره خيراً كثيراً، وضمنه من أدلة التوحيد ما يكفي مَنْ وفقه الله، وبين فيه الأدلة في بيان الشرك الذي لا يغفره الله، ويلزمهم سؤال العامة عن أصول الدين الثلاثة بأدلتها، وأربع القواعد**»[٤] .

---

(١) شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن باز ص ٢١.

(٢) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ١/ ١٢.

(٣) شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن باز ص ٢١.

(٤) الدرر السنية ٤/ ٣٣٨.

وكتب الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ لأئمة المساجد يأمرهم بتعليم جماعة المسجد ثلاثة الأصول، وأن يعقد لهم مجلساً يومياً يسألهم عنها قال ـ رحمه الله ـ: «**وكذلك عليكم ـ أي الأئمة ـ تعليم الجماعة أمر الدين وسؤالهم عنه، كما في «مختصر ثلاثة الأصول» فيتعين على كل إمام مسجد إبلاغ جماعته بذلك، ويعقد لهم مجلساً يومياً يسألهم فيه عن أمور دينهم، ويعلمهم ما يخفى عليهم منها**»[1].

واجب أئمة المساجد تعليم المصلين ثلاثة الأصول

ولأهمية هذه الرسالة وعميم نفعها وضعت لها شرحاً سميته: «**تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول**» موضحاً معانيها، ومظهراً مبانيها، مستشهداً بأقوال سلف هذه الأمة ومحققيها، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ.

أسأل الله عزَّ وجل أن ينفع به، وأن يجعله ذخراً لنا في الآخرة، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. عبد المحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن قاسم
إمام وخطيب المسجد النبوي
والقاضي بالمحكمة العامة
بالمدينة النبوية

---

(١) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ٢/ ٢٧٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم[1] رحمك الله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

شرح البسملة

استفتح المؤلف ـ رحمه الله ـ كتابه مستعيناً بالله، متبركاً باسمه تعالى، قائلاً: أبدأ مصنفي بـ **(بسم الله)** مقتدياً في ذلك بكتاب الله، ومتأسياً بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته.

ولفظ الجلالة «الله» علم على الباري جلَّ وعلا، وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء.

و**(الرحمن)** اسم من الأسماء المختصة بالله لا تطلق على غيره، والرحمن معناه المتصف بالرحمة الواسعة.

و**(الرحيم)** اسم من أسمائه تعالى، ويطلق عليه ويطلق على غيره، ومعناه ذو الرحمة الواصلة، فالرحمن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم»[2].

أربع مسائل واجب تعلمها

يقول المصنف: **(اعلم)** ولا تكن جاهلاً بأمور الدين، وسأذكر لك مسائل مهمة في أصول الدين حقيق أن تهتم بها غاية الاهتمام وأن تصغي إليها حقيقة الإصغاء، وأنا أدعو لك بالرحمة قائلاً: **(رحمك الله)** أي: أسأل الله أن ينزل عليك رحمته التي تحصل بها على مطلوبك، وتنجو بها من محذورك، وهذا دأب الناصح يدعوك إلى الهداية، ويدعو لك بالخير، فيجمع بين التعليم

---

(١) هذه هي الرسالة الأولى من الرسائل التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٢٤.

أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الأولى: العلم،

والدعاء، وهذا من حُسن عناية المصنف ـ رحمه الله ـ بعباد الله المؤمنين، ونصحِه وقصدِه الخير للمسلمين.

(أنه يجب) وجوباً عينياً **(علينا)** نحن المكلفين، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً **(تعلم)** ومعرفة **(أربع مسائل)** مهمة في الدين شاملة له.

المسألة الأولى: العلم

(الأولى) من تلك المسائل: **(العلم)** وهو معرفة الهدى بدليله، ويشمل معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام، وخص المصنف ـ رحمه الله ـ هذه الأمور، لأنها هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا عليها، وهي التي يسأل العبد عنها في قبره، والعبد إذا عرف ربه وعرف نبيه ﷺ وعرف دين الإسلام بالأدلة، كمل له دينه.

وما كان واجباً على الإنسان العمل به ـ كأصول الإيمان وشرائع الإسلام، وما يجب اجتنابه من المحرمات، وما يحتاج إليه في المعاملات ونحو ذلك ـ مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ليعبد العبد ربه على بصيرة، ويتقرب إليه على برهان، ويجب عليه أن يسأل أهل العلم عمَّا جهله من ذلك، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه، قيل له: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله، صلاته وصيامه ونحو ذلك»[1].

وأما القدر الزائد على ما يحتاج إليه المعيّن من فروض الكفايات، كتعلم المواريث وكيفية تغسيل الميت، فإنه إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين *.

---

(١) الفروع لابن مفلح ١/ ٥٢٥.

وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

معرفة الله

(و) العلم الواجب علينا تعلمه **(هو معرفة الله)**، ومعنى معرفة الله: أن يعرف العبد ربه بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ من أسمائه وصفاته وأفعاله.

ومعرفة الله أحد مهمات الدين، والجهل به سبحانه من التفريط في أمور الدين، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته»[(١)].

والإنسان لا يكون على الدين الحق إلا بالعلم بربه، ولهذا كان أساس دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «مفتاح الدعوة الإلهية، معرفة الرَّبّ تعالى»[(٢)]. ومن سلك الطريق الموصل إليه تعالى، سلك طريق معرفته، وعلى قدر معرفة الله يكون تعظيم الرَّبِّ في القلب، ومن عرف الله أحبه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبَّه لا محالة»[(٣)].

ومعرفة الله وإفراده بالعبادة، هو سبب السعادة في الدارين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «اللذة والفرحة، والسرور وطيب الوقت، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به»[(٤)].

معرفة نبيه ﷺ

(و) من العلم الواجب على المكلف تعلمه **(معرفة نبيه)** محمد ﷺ، فإنه الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ رسالة الله، ومعرفته تستلزم قبول وامتثال ما جاء به من عند الله، من الهدى ودين الحق.

معرفة دين الإسلام

كما يجب على المكلف **(معرفة دين الإسلام بالأدلة)** من الكتاب والسنة، لأنه هو الدين الذي تعبَّد الله به الخلق، ومعرفته والعمل به سبب

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٩٥.
(٢) الصواعق المرسلة ١/ ١٥١.
(٣) مدارج السالكين ٣/ ١٧.
(٤) فتاوى شيخ الإسلام ٢٨/ ٣١.

....

لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كمال الإنسان مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثار الحق على الباطل، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله في الدنيا والآخرة، إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين»(١).

ومعرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة دين الإسلام، أول ما يسأل عنها العبد في القبر، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً وفيه: «فيأتيه ـ أي: المؤمن ـ مَلَكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ» رواه أحمد(٢).

ومن كان يعرف هذه الأصول بأدلتها حري به أن يثبت عند سؤال الملكين في قبره، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن بعض الناس يقول: «هاه، هاه، لا أدري» رواه أحمد(٣).

وإذا كان العامي يعتقد وحدانية الله، ويعتقد بطلان ما يعبد من دون الله فهو مسلم، وإن لم يعلم الدليل، قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين ـ رحمه الله ـ: «فرض على كل أحد، معرفة التوحيد وأركان الإسلام بالدليل، ولا يجوز التقليد في ذلك، لكن العامي الذي لا يعرف الأدلة إذا كان يعتقد وحدانية الرَّبّ سبحانه ورسالة محمد ﷺ ويؤمن بالبعث بعد الموت، والجنة والنار، ويعتقد أن هذه الأمور الشركية التي تفعل عند هذه المشاهد باطلة وضلال، فإذا كان يعتقد ذلك اعتقاداً جازماً لا شك فيه فهو مسلم، وإن لم يترجم بالدليل، لأن عامة المسلمين ولو لقنوا الدليل، فإنهم لا يفهمون المعنى غالباً»(٤) *.

(١) الجواب الكافي ص ٩٩.

(٢) المسند رقم (١٨٥٥٧) ٤/ ٢٨٧ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) المسند رقم (١٨٥٥٧) ٤/ ٢٨٧ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) الدرر السنية ٤/ ٣٣٩.

طلب العلم

والسعي في طلب العلم، لمعرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة الدين، من أجلّ العبادات وأفضل من نوافلها، قال الزهري ـ رحمه الله ـ: «ما عبد الله بشيء أفضل من العلم»[(١)].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «طلب العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته»[(٢)]. والعلم هو الميراث النبوي ونور القلوب، وأهله هم أهل الله وحزبه، وأولى الناس به وأقربهم إليه، وأخشاهم له، وأرفعهم درجات.

وهو من أجل الأعمال، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «العلم لا يعدله شيء»[(٣)]، وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وهو ـ أي: العلم الشرعي ـ حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغنى الذي لا فقر على من ظفر بكنزه»[(٤)].

وحاجة الناس إلى العلم أشد من حاجتهم إلى المأكل والمشرب، قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «الناس إلى العلم، أحوج منهم إلى الطعام

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/ ٣٦٥.

(٢) شرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/ ٢٣٦.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٤٥.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٤٦٩.

....

والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه»[1].

وطلب العلم مفضل على الجهاد في سبيل الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الغدو والرواح في تعلم العلم، أفضل عند الله من الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل»[2].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «تعلم العلم، وتعليمه أفضل من الجهاد وغيره»[3]. وقال الإمام أبو حنيفة ومالك ـ رحمهما الله ـ: «أفضل ما تطوع به، العلم وتعليمه»[4]. وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لا يعدل مداد العلماء، إلا دم الشهداء»[5] *.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٠.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب رقم (٤٣٠٣) ٣/ ١٠٩.

(٣) الإنصاف للمرداوي ٢/ ١٦٢.

(٤) منهاج السنة ٦/ ٧٥.

(٥) الفروسية لابن القيم ص١٥٧.

....

والعلم أفضل ما عمرت به الأوقات، وخير ما أنفقت فيه الأنفاس، وبذلت فيه المهج، قال النووي ـ رحمه الله ـ: «اتفق جماعات السلف على أن الاشتغال بالعلم، أفضل من الاشتغال بنوافل الصلاة، والصوم، والتسبيح، ونحو ذلك من أعمال البدن»[(١)]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فعش بعلم ولا تبغي له بدلا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء[(٢)]

بماذا ينصح العلماء؟

ونصيحة العلماء هي التزود من العلم، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «وما أزال أحرص الناس على العلم؛ لأنه النور الذي يهتدى به»[(٣)]. والسعادة إنما هي في العلم قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «السعادة كلها في العلم وما يقتضيه، والله يوفق من يشاء لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وُعُورَة طريقها، ومرارة مباديها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنال إلا على جد من التعب، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض»[(٤)]، وقد أمر الله نبيه ﷺ التزود من العلم، فقال عزَّ وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ومن أراد الله به خيراً فقهه في الدين، قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» متفق عليه[(٥)].

ومن علم أن الدنيا دار سباق وتحصيل للفضائل، وأنه كلما علت مرتبته في العلم والعمل، زادت المرتبة في دار الجزاء، انتهب الزمان ولم يضيع منه لحظة، ولم يترك فضيلة تمكنه إلا حصلها، ومن وفق لهذا، فليبتكر زمانه بالعلم، وليصابر كل محنة وفقر، إلى أن يحصل له ما يريد، فالراحة لا تنال

(١) المجموع ٤/٦.
(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ١٥١.
(٣) أحكام النساء لابن الجوزي ص٨.
(٤) مفتاح دار السعادة ١/ ١١١.
(٥) البخاري رقم (٧١) ١/ ٢٤، ومسلم رقم (١٠٣٧) ٢/ ٧١٧ من حديث معاوية رضي الله عنه.

....

بالراحة، قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ:

اعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران في العمل[١]

وليكن مخلصاً في طلب العلم عاملاً به، حافظاً له، ومن فاته الإخلاص، فذلك تضييع زمان وخسران جزاء، ومن فاته العمل به، فذاك يقوي الحجة عليه والعقاب له.

العلم الشرعي هو الممدوح في النصوص

والمراد من العلم: العلم الشرعي الذي يفيد معرفته ما يجب على المكلف من أمر دينه، الذي لا حياة له إلا به، إذ هو الجالب لخشية الله قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولا عبد الله وحده وحمد، وأثني عليه ومجد إلا بالعلم، ولا عرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم، ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم، ولا فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم»[٢].

ولا دليل إلى الله والجنة، إلا الكتاب والسنة، ولا صلاح للعباد في معاشهم ومعادهم، إلا بالعلم بالله، وفي الجهل والغفلة عن العلم، زوال النعم وحلول النقم؛ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فما خراب العالم إلا بالجهل، ولا عمارته إلا بالعلم، وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قلَّ الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد»[٣]، فعلى العاقل أن لا يضيع أوقات عمره وساعات دهره، إلا في طلب العلم النافع *.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٨/ ٤٥١.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١٤.

(٣) إعلام الموقعين ٢/ ٢٥٧.

الثانية: العمل به.

المسألة الثانية: العمل بالعلم

المسألة **(الثانية)** الواجب علينا تعلمها **(العمل به)** أي: بالعلم، إذ هو ثمرة العلم ومن أسباب رسوخه، قال بعض السلف: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»(١). ومن عمل بما علم حفظ الله عليه علمه وأثابه علماً آخر لا يعلمه، كما أن العمل به من أسباب زيادة الإيمان قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، قال الشوكاني رحمه الله: «زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين»(٢)، والسعيد من حقق العلم والعمل قال النووي ـ رحمه الله ـ: «الحكمة: العلم المشتمل على المعرفة بالله، مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس. وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده. والحكيم من حاز ذلك»(٣).

فإذا عمل الإنسان بعلمه بأن حافظ على فرائض الله، ولازم النوافل كالسنن الرواتب والوتر، وتلاوة القرآن والاستغفار بالأسحار، وألزم نفسه ساعة يجلسها في المسجد للذكر ـ وأحسن ما يكون بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ـ، واجتنب مجالس اللغو والغفلة، وابتعد عن مجالس أهل الغيبة وساقط الكلام، وحفظ لسانه مما لا يعنيه، فقد تسبب للعمل بعلمه، ومن لم يعمل بما علم حرم لذة العلم والخشية، وأوشك الله أن يسلبه ما علم وكان في عداد الجاهلين قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «لا يزال العالم جاهلاً حتى يعمل بعلمه، فإذا عمل به كان عالماً»(٤). ومن لم يعمل بعلمه فعلمه حسرة عليه يوم الحساب، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ٩٠.
(٢) فتح القدير ٥/ ٣٥.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٣٣.
(٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٨/ ٤٢٧.

....

ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» رواه الترمذي[(١)].

والذي معه علم ولا يعمل به شر من الجاهل، وهو أحد الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة[(٢)]، وفي ذلك يقول ابن رسلان ـ رحمه الله ـ:

وعالم بعلمه لم يعملن   معذب من قبل عباد الوثن[(٣)]

ومن علم مسألة من المسائل قامت عليه الحجة فيها ولو لم يكن من العلماء، قال عليه الصلاة والسلام: «والقرآن حجة لك أو عليك» رواه مسلم[(٤)]. ومن عمل بلا علم فقد شابه النصارى، ومن علم ولم يعمل فقد شابه اليهود، والعالم من عمل بعلمه وإن كان قليل العلم، ومقصود الشريعة في تحصيل العلم هو العمل به، مما يجلب خشية الله ويقرب من الخالق *.

---

(١) سنن الترمذي رقم (٢٤١٧) ٤/ ٦١٢ من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) وهم المقاتل، ومتعلم العلم، والمنفق ماله، الذين لم يكن قصدهم وجه الله إنما قصدهم ثناء الناس عليهم كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه رقم (١٩٠٥) ٣/ ١٥١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الزبد لابن رسلان ص ١.

(٤) صحيح مسلم رقم (٢٢٣) ١/ ٢٠٣ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها».

المسألة الثالثة: الدعوة إلى الله

المسألة **(الثالثة)** الواجب علينا تعلمها، والعمل بها: **(الدعوة إليه)** ـ جلَّ وعلا ـ، وتعليم الناس، وإرشادهم، ونصيحتهم.

والدعوة إليه سبحانه من أجل الأعمال، وهي طريقة الرسل قال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي»[(١)].

وقول الداعية: أحسن الأقوال وأزكاها عند الله، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. والمسلم إذا عرف معبوده ونبيه ﷺ ودينه ومنَّ الله عليه بالتوفيق لذلك، فإن عليه السعي إلى إنقاذ غيره بدعوته إلى الله تعالى، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «مقصود الدعوة النبوية، بل المقصود بخلق الخلق وإنزال الكتب وإرسال الرسل، أن يكون الدين كله لله، وهو دعوة الخلائق إلى خالقهم»[(٢)].

أعلى مراتب الدعوة

وأعلى مراتب الدعوة: الدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك، فإنه ما من نبي بعث إلى قومه إلا ودعاهم إلى طاعة الله وإفراده بالعبادة، ونهاهم عن الشرك ووسائله وذرائعه، ثم يبدأ الداعية بعد ذلك بالأهم فالأهم من شرائع الإسلام، مصطحباً الحكمة معه في كل قول وعمل ممتثلاً قول الله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٧٦٦.

(٢) الفتاوى ٢/ ٤٦٤.

....

ومن قام بالدعوة إلى الله مخلصاً لله متبعاً هدي النبي ﷺ كان من أتباع الرسل حقاً، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء، هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسهاوزكى الناس بها»[١].

وأجور الداعي إلى الله متواصلة عبر الدهور، يقول النبي ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» رواه مسلم[٢]. والسعي إلى هداية الخلق خير من زخرف الحياة يقول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» متفق عليه[٣].

حاجة الناس إلى الدعوة

ومقصود الأنبياء إرشاد الناس إلى معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالعلماء ورثة الأنبياء عليهم بيان ما جاء به الرسول ﷺ ورد ما يخالفه»[٤]، وحاجة العباد إلى الدعوة والبصيرة في الدين أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به ﷺ واتباعه منها إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب»[٥].

والدعوة ذات مجالات واسعة، فالتعليم وإرشاد العاصي وتنبيه الغافل

(١) الفتاوى ٤/ ٩٢.
(٢) رقم (٢٦٧٤) ٤/ ٢٠٦٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) البخاري رقم (٢٧٨٣) ٣/ ١٠٧٧، ومسلم رقم (٢٤٠٦) ٤/ ١٨٧٢ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٤) الفتاوى ٢٧/ ٣١٦.
(٥) الفتاوى ١/ ٥.

....

وإسداء النصيحة والتوجيه للخير، كل ذلك من الدعوة إلى الله، يقول النبي ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» رواه مسلم[1]، ومن أعرض عن تعليم الآخرين وإرشادهم وتعليمهم أمر دينهم، فقد عرض نفسه للوعيد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. قال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: «من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما أن يموت فيذهب علمه، أو ينساه، أو يتبع السلطان ـ أي: إذا دعا إلى باطل ـ»[2].

فواجب على كل مسلم الدعوة إلى الله، ونصح المقصر، والسعي إلى إصلاح المجتمع كلٌّ بحسبه *.

(١) رقم (١٨٩٣) ٣/ ١٥٠٦ من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.
(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي رقم (٥٨٦) ص٣٥٠.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

المسألة الرابعة: الصبر على أذية الناس في الدعوة

المسألة: **(الرابعة)** من المسائل الواجب علينا معرفتها والعمل بها **(الصبر على الأذى فيه)** أي: في جنب الله عزَّ وجل.

فإن ميدان الداعية صدور الرجال وهي متباينة ومختلفة كاختلاف صورهم وأشكالهم، ومن قام بدين الإسلام، ودعا الناس إليه، فقد تحمَّل أمراً عظيماً وقام مقام الرسل في الدعوة إلى الله، والداعي يحول بين الناس وبين شهواتهم وأهوائهم واعتقاداتهم الباطلة، وقد يؤذونه فعليه أن يصبر ويحتسب، قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء»[١].

والصبر: ثبات القلب عند موارد الاضطراب، والدين كله يحتاج إلى صبر، وأصل هذه الكلمة هو: المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوها، وأما حقيقته: فهو خلق فاضل يمنع من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «لا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر»[٢]. وبالصبر واليقين اللذين هما أصل التوكل تُنال الإمامة في الدين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فمن أعطي الصبر واليقين جعله الله إماماً في الدين»[٣].

كيف تنال الإمامة في الدين؟

فكن سائراً في الدعوة إلى دين الله وإن أوذيت فأذية الداعي إلى الخير من طبيعة البشر، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، والرسل أوذوا بالقول والفعل، قال الله

(١) الفتاوى ٤/ ٥٠.
(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٠.
(٣) الفتاوى ٦/ ٢١٥.

....

عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

ولا مناص من ابتلاء الداعية إلى الله «سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله أيهما أفضل للرجل أن يمكَّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكَّن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكَّنهم فلا يظن أحداً أن يخلص من الألم البتة»(١).

ومن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عزَّ عليه الصبر طمع فيه عدوه. فليوطن المسلم نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فإنه من وثق بالثواب لم يضره مس الأذى، والمؤمن همَّته فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، والإنسان إذا لم يصبر وقع فيما حرم الله عليه أو ترك ما أوجب الله عليه*.

---

(١) الفوائد ص٤٠٧.

....

عاقبة الصبر

والصبر من أهم المهمات لمن علم فعمل فدعا، فإن لم يصبر استخفه الذين لا يوقنون قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، وقد أمر الله الرسل بالتحلي بالصبر قال جلَّ وعلا: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، ومن الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ومن أسباب الفلاح الصبر على تعليم الآخرين، وبذل المجهود في الإخلاص لنفعهم، وكلما قويت الأذية قرب النصر، قال عليه الصلاة والسلام: «وإن النصر مع الصبر» رواه أحمد(١). قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو»(٢).

وليس النصر مختصاً بأن ينصر الإنسان في حياته ويرى أثر دعوته قد تحقق؛ بل النصر يكون ولو بعد موته بأن يجعل الله في قلوب الخلق قبولاً لما دعا إليه، وأخذاً وتمسكاً به، والصابر ظافر بعزِّ الدنيا والآخرة؛ لأنه نال من الله معيته قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «يثقل الميزان باتباع الحق والصبر عليه، وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل»(٣).

والفلاح معلق بالصبر والتقوى، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد بشر الله الصابرين بثلاث كلٌّ منها خير مما يتنافس عليه أهل الدنيا قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾،

(١) المسند رقم (٢٨٠٤) ١/ ٣٠٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) محاضرات الأدباء لأبي القاسم الأصبهاني ٢/ ٥٢٤.
(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص٧٨.

....

والفوز بالجنة لا يحظى به إلا الصابرون قال عزَّ وجل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

وتحقيق هذه المسائل الأربع ـ العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر ـ من أعظم مجاهدة النفس لإصلاحها وصلاح غيرها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين»[١] *.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ١٠.

والدليل قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟

دليل المسائل الأربع

(**والدليل**) على أنه يجب علينا تعلم الأربع مسائل وهي العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه.

(**قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم**) أتى بالبسملة مستفتحاً بها السورة.

(﴿وَٱلْعَصْرِ﴾) أقسم تعالى بالعصر، وهو الدهر الذي هو زمن تحصيل الأرباح والأعمال الصالحة للمؤمنين، وزمن الشقاء للمعرضين، لأنه وعاء يودع فيه العباد أعمالهم، ولما فيه من العبر والعجائب، والله سبحانه وتعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه، وهو سبحانه الصادق وإن لم يقسم ولكنه أقسم لتأكيد المقام.

(﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾) أي: جنس الإنسان في هذه الحياة.

(﴿لَفِى خُسْرٍ﴾) أي: في خسران وهلاك ونقصان، والخاسر: ضد الرابح، والخسران مراتب متعددة متفاوتة، فقد يكون خساراً مطلقاً كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم واستحق الجحيم، وقد يكون خساراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسران لكل إنسان.

(﴿إِلَّا﴾) من استثنى الله في هذه السورة ممن اتصف بأربع صفات، وهي الإيمان بالله حيث قال سبحانه: (﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾) فوقر الإيمان في قلوبهم، ولا يكون الإيمان بدون العلم فهو فرع منه لا يتم إلا به.

(﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾) بجوارحهم مكثرين منها مصطحبين فيها الإخلاص مقتفين هدي النبي ﷺ، وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

(﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾) أي: أمر ووصَّى وحضَّ بعضهم بعضاً.

﴿بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

(﴿بِٱلْحَقِّ﴾) الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك ويحثه عليه ويرغبه فيه.

(﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾) أي: ذكَّر بعضهم بعضاً (﴿بِٱلصَّبْرِ﴾) على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، فصبروا على ما نالهم من أذى، وصبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله.

ومن قام بهذه الخصال فقد جانب الخسران، وكان من عباد الله المفلحين، فبالأمرين الأولين وهما الإيمان والعمل الصالح يكمِّل العبد نفسه، وبالأمرين الأخيرين وهما التواصي بالحق والصبر يكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز بالربح العظيم.

والدين كله إيمان وعمل ودعوة وصبر، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلّم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السموات»[1] *.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ١٠.

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم».

منزلة سورة العصر

فسورة العصر تنبيه على أن جنس الإنسان كله في خسارة إلا من استثنى الله وهو من كمَّل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالطاعات، فهذا كماله في نفسه، ثم كمَّل غيره بوصيته له بذلك وأمره به، وملاك ذلك الصبر وهذا غاية الكمال، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «قالت العقلاء قاطبة: النعيم لا يدرك بالنعيم، والراحة لا تنال بالراحة، وأن من آثر اللذات فاتته اللذات»[(١)].

والعاقل البصير إذا سمع هذه السورة أو قرأها سعى إلى تخليص نفسه من الخسران وذلك باتصافه بهذه الصفات الأربع، فهي سورة عظيمة جمعت أربع قواعد يَسيرُ عليها المسلم في حياته.

(قال) الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس **(الشافعي ـ رحمه الله ـ)**[(٢)] عن هذه السورة:

(لو ما أنزل الله) من القرآن **(حجة)** وإعذاراً وإنذاراً وبرهاناً **(على خلقه)** المكلفين **(إلا هذه السورة)** العظيمة الجامعة **(لكفتهم)**[(٣)] في إلزامهم بالتمسك بالدين، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الكمال: أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكمِّلاً لغيره، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره»[(٤)].

---

(١) شفاء العليل ص٢٥٠.

(٢) المتوفى سنة ٢٠٤هـ.

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره: ١/٦٣ عن الشافعي نحوه بلفظ «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم». وذكره ابن القيم في التبيان ص٥٣ وفي مفتاح دار السعادة ١/٥٨، وفي الاستقامة ٢/٢٥٩، وفي عدة الصابرين ص٦٠ عن الشافعي أيضاً بلفظ «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم».

(٤) مفتاح دار السعادة ١/٥٨.

وقال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ: «بابٌ العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، فبدأ بالعلم» قبل القول والعمل.

فهذه السورة من المبشرات المنذرات للعبد، فليقف العبد عندها وليزن بها نفسه، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: « هذه السورة ميزان للأعمال يزن المؤمن بها نفسه، فيبين له بها ربحه من خسرانه»(١). فهي سورة حقيقة بأن يقال فيها ما قاله الأئمة عنها لعظيم شأنها.

العلم قبل العمل

(و) لأهمية طلب العلم قبل العمل لئلا يعبد الإنسان ربه على ضلالة، **(قال)** الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل **(البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ)**(٢) في صحيحه(٣):

(بابٌ) أي: هذا بابٌ فيه أن **(العلم)** الشرعي وطلبه **(قبل القول)** دعوةً إليه، وقبل **(العمل)** به.

(والدليل) على هذه المسألة **(قوله تعالى:** ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾) أيها الرسول (﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾) معبودَ بحقٍّ (﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾) وحده لا شريك له، (﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾) بسؤال المغفرة وفعل أسبابها.

قال البخاري ـ رحمه الله ـ: **(فـ)** في هذه الآية **(بدأ)** الله **(بالعلم)**، قال المصنف ـ رحمه الله ـ: وذلك **(قبل القول والعمل)**، فإذا علم عمل على بصيرة وهدى، وكل عمل لا يقوده العلم فهو ضرر على صاحبه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به، فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة

---

(١) لطائف المعارف ص٣١٣.

(٢) المتوفى سنة ٢٥٦هـ.

(٣) صحيح البخاري كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل رقم (٥) ١/ ٣٧.

....

عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[1].

فمرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، والعلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتد بهما إلا به، فهو مقدم عليهما، لأنه مصحح النية المصححة للعمل*.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٨٥.

اعلم[1] رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل والعمل بهن:

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا

لما فرغ المصنف ـ رحمه الله ـ من ذكر أربع مسائل يجب علينا تعلمها، أُتْبِعت بثلاث مسائل للمصنف يجب علينا تعلمها والعمل بها، قال فيها:

(**اعلم رحمك الله**) أي: أدعو لك بأن يرحمك الله وينزل عليك من فضله، وأطلب منك أن تعلم يقيناً.

ثلاث مسائل يجب تعلمها والعمل بها

(**أنه يجب**) وجوباً عينياً (**على كل مسلم**) مكلف ذكر، وعلى كل (**مسلمة**) مكلفة (**تعلُّم**) واعتقاد (**ثلاث هذه المسائل**):

الأولى: في توحيد الربوبية، والثانية: في توحيد الألوهية، والثالثة: في الولاء والبراء، قال عنها المصنف ـ رحمه الله ـ: «وهذا هو حقيقة دين الإسلام، ولكن قف عند هذه الألفاظ، واطلب ما تضمنت من العلم والعمل، ولا يمكن في العلم إلا أنك تقف على كل مسمى منها»[2].

(**والعمل بهن**) وبما دللن عليه؛ لأنهن قاعدة الدين وأساس الاعتقاد.

المسألة الأولى: في توحيد الربوبية

المسألة (**الأولى**) في توحيد الربوبية، وهي من المسائل الثلاث الواجب علينا تعلمها وهي (**أن الله**) عزَّ وجل (**خلقنا**) من عدم كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾، ثم صورنا أحسن صورة كما قال جلَّ وعلا: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾.

(**ورزقنا**) النعم، فلم يتركنا سبحانه عراة أو جياعاً، بل رزق كلّ مخلوقٍ وتكفل بذلك، قال عزَّ وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾،

---

(١) هذه هي الرسالة الثانية من الرسائل الثلاث التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) الدرر السنية ١/ ١١٧.

ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار،

فسبحانه أوجدنا من العدم ورزقنا النعم لنعبده وحده، قال عزَّ وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

(**ولم يتركنا هملاً**) سدى مهملين، لا نؤمر ولا ننهى قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾، ولم يتركنا سبحانه حيارى لا نعلم الحق؟ ولا أين هو؟ وكيف نصل إليه؟ وكيف نتحصل عليه؟

(**بل أرسل إلينا رسولاً**) معه الحق سهلاً ميسراً يهدي إليه، لنستقيم على ما فيه من الهدى، ونعمل بما فيه من الأوامر.

(**فمن أطاعه دخل الجنة**)؛ لأن طاعته طاعة لله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وأفضل الخلق وأعلاهم وأقربهم إلى الله، أتمهم لله عبودية، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله ﷺ باطناً وظاهراً»[(١)]، فالغاية من إرسال الرسل طاعتهم واتباعهم فيما جاؤوا به من عند الله تعالى.

(**و**) شقاء المخلوق في عصيان الرسول ﷺ؛ لأن (**من عصاه دخل النار**)، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، فقيل: ومن

---

(١) الفتاوى ١٠/٥٤٦.

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري[1].

(والدليل) على التحذير من عصيانه **(قوله تعالى**: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾) يا أمة محمد (﴿رَسُولًا﴾) وهو خاتم المرسلين محمد ﷺ (﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾) بأعمالكم (﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ﴾) موسى عليه السلام ـ كليم الرحمن ـ (﴿إِلَىٰ﴾) الطاغية (﴿فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾) من أفضل الرسل، (﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾) الذي أرسل إليه وإلى قومه وهو موسى عليه السلام (﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾) أي: فرعون (﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾) أي: شديداً، وذلك بإغراقه وجنوده في البحر فلم يفلت منهم أحد، ثم بعد ذلك في عذاب القبر إلى يوم القيامة، ثم عذاب النار قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: في القبر، يعذبون بها ﴿غُدُوًّا﴾، أي: أول النهار، ﴿وَعَشِيًّا﴾، أي: آخره ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فهذه عاقبة العاصين للرسل، وجزاء المخالفين لأمرهم.

فلتحذر أمة محمد ﷺ من تكذيب رسولها، فيصيبها ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيزٍ مقتدر، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران»[2].

فالخير في طاعة الرسل، والبؤس في عصيانهم قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الإيمان بالله ورسوله، هو جماع السعادة وأصلها»[3] *.

---

(١) رقم (٦٨٥١) ٦/ ٢٦٥٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن لابن كثير ٤/ ٣٩٥.

(٣) الفتاوى ٢٠/ ١٩٣.

الثانية: أنَّ الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته، لا مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل،

المسألة الثانية: في توحيد الألوهية

ولكون المسألة الأولى في توحيد الربوبية، ولأن توحيد الربوبية دال على توحيد الألوهية ومستلزم له، ذكر تحقيق ذلك في المسألة **(الثانية)** وهي في توحيد الألوهية، وهي من المسائل الثلاث الواجب علينا تعلمها ومعرفتها واعتقادها، فكما أنه الخالق الرازق الذي خلقك وأعطاك النعم فاعلم **(أنَّ الله لا يرضى)** بل يمقت أشد المقت **(أن يُشرك)** ويساوى **(معه)** أيّ **(أحد)** به في عبادته وطاعته **(لا مَلَكٌ)** من الملائكة **(مقرب)** عنده، **(ولا نبي مرسل)** من البشر أرسله، فضلاً عن غيرهم من سائر المخلوقات؛ لأنهم لا يستحقون العبادة، قال ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» رواه مسلم[1]، وأخبر تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾، وأخبر أنه يرضى لعباده الإسلام، وهو عبادة الله مخلصاً له الدين قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

فإذا لم يرض سبحانه بعبادة من كان قريباً منه، كالملائكة، أو الأنبياء والمرسلين، وهم أفضل الخلق، فغيرهم بطريق الأولى؛ لأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، فكما أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، فهو المستحق للعبادة وحده دون من سواه، فالمسلم يجمع بين أمرين، يؤمن بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، ويؤمن بأنه سبحانه هو المستحق وحده للعبادة، من ذبح وصلاة و نذر وحلف وغيرها، وأن عبادة من سوى الله باطلة.

---

(١) رقم (١٧١٥) ٣/ ١٣٤٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

(**والدليل**) على أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته كائناً من كان (**قوله تعالى**: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾) أي: أماكن الصلوات أو أعضاء السجود (﴿لِلَّهِ﴾) لا لأحد سواه، (﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ﴾) لا تسجدوا فيها ولا بها لغيره (﴿أَحَدًا﴾) لا ملكاً من الملائكة، ولا نبياً، ولا ولياً، ولا غيرهم، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، فدعاؤهم من دون الله هو الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فهو سبحانه المتفرد بالوحدانية، وهو القاهر فوق عباده القوي المتين، لا يرضى أن تصرف العبادة لغيره، أو أن يجعل المخلوق الضعيف شريكاً له في العبادة *.

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، والدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ

المسألة الثالثة: في الولاء والبراء

المسألة **(الثالثة)** في الولاء والبراء، وهي من المسائل التي يجب على المكلف معرفتها، واعتقادها، والعمل بها وذلك **(أن من أطاع الرسول)** فيما أمر به، واجتنب ما نهى عنه **(ووحد الله)** في عبادته لا يوالي من حادَّ الله، وهذا فيه شحذ الهمم للعمل بهذه المسألة وفق النصوص الشرعية، فكأنه يقول لك: أنت وحّدت ربك وعبدته دون سواه وأطعت رسوله ﷺ فاعمل بهذه المسألة العظيمة، وهي أنه **(لا يجوز له)** أي: للموحد المطيع للرسول ﷺ **(موالاة)** ومحبة **(من حاد)** وعادى **(الله ورسوله)** بل يجب عليه أن يقاطعهم ويعاديهم **(ولو كان)** من حاد الله ورسوله **(أقرب قريب)** سواء كان أباك، أو ابنك أو أخاك، فإن الله قطع التواصل والتواد، والقرب حقيقةً إنما هو قرب الدين لا قرب النسب، فالمسلم ولو كان بعيد الدار فهو أخوك في الله، والكافر ولو كان أخاك في النسب فهو عدوك في الدين.

دليل الولاء والبراء

(والدليل) على أنه لا تجوز موالاة من حاد الله ورسوله **(قوله تعالى:** ﴿لَا تَجِدُ﴾) يا أيها النبي (﴿قَوْمًا﴾) أي: طائفة، والحكم أيضاً يسري على الأفراد (﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾) إيماناً حقيقياً (﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾) وبما أعد الله فيه من الثواب والعقاب.

(﴿يُوَآدُّونَ﴾) يوالون ويحبون (﴿مَنْ حَآدَّ﴾) أي: عادى (﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾) بالكفر والعصيان، أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً بمقتضى إيمانه ولوازمه، ومن ذلك محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته.

(﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾) هؤلاء (﴿ءَابَآءَهُمْ﴾) الذين أخرجهم الله من

أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أصلابهم، (﴿أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾) الذين هم هبة من الله لآبائهم، (﴿أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ﴾) في النسب، (﴿أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾) الأقربين منهم.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾) الذين حققوا الولاء والبراء.

(﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾) أي: أوجد في قلوبهم الإيمان وثبّته فلا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، فهي موقنة مخلصة.

(﴿وَأَيَّدَهُم﴾) الله وقوّاهم (﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾) أي: بوحيه ومدده الإلهي، وإحسانه الرباني، وكتب لهم السعادة، وزين الإيمان في بصائرهم، وسمى الله نصره إياهم روحاً، لأنه به حياتهم.

(﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾) في دار القرار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر (﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾) زيادة في نعيمهم، (﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾) منعمين أبد الآباد.

وزادهم بأن (﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾) فأحل عليهم رضوانه، (﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾) وأحبوه وشكروا إنعامه وأفضاله، فإنهم لمّا أسخطوا القرائب والعشائر في الله، عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾) أي: عباد الله وأهل كرامته، وأولياؤه المقربون، وأنصاره في أرضه.

(﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾) الفائزون بالظفر والسعادة في الدنيا والآخرة.

....

جزاء من حقق الولاء والبراء

فمن حقق البراء فقد أخبر الله أنه يجازيه بأمور:

١ ـ جمع الإيمان في قلبه وثباته فيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

٢ ـ تأييد الله له بالنور والهدى ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ﴾، وسماه روحاً، لأنه سبب الحياة الطيبة. وهذا الأمر مع الذي قبله من الثواب في الدنيا.

٣ ـ دخول الجنة ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

٤ ـ رضا الرب سبحانه عنه ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وهذا من الزيادة في النعيم كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾.

٥ ـ رضا العبد في الآخرة بدخوله الجنة وما فيها من الكرامة ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾.

٦ ـ إكرام الله لهم، بأن جعلهم من خاصته وحزبه المفلحين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قال في تيسير الكريم الرحمن: «وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك مواد لأعداء الله، محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره، فإن هذا الإيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان تصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها»(١) *.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص٧٨٧.

....

أهمية الولاء والبراء

والولاء والبراء أصل عظيم من أصول الدين قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «لا يستقيم للإنسان إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء»(١). وهو معنى كلمة التوحيد، وهو من الإسلام الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والبراءة ضد الولاية، وأصل البراءة البغض، وأصل الولاية الحب، وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا يحب إلا الله ويحب ما يحبه الله لله، فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله»(٢).

والمسلم يحب من يحب الله ويعادي من عاداه الله، والله يبغض الكافر قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، والكافر عدو لله وللمؤمنين، قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، والولاء والبراء من تمام محبة الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «من تمام محبة الله ورسوله، بغض من حاد الله ورسوله، والجهاد في سبيله»(٣).

وإذا قوي الإيمان في القلب قوي جانب الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «إذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله، أوجب بغض أعداء الله»(٤)، وإذا أخل العبد بجانب الولاء والبراء استحق العقاب قال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: أصدقاء وأحباباً ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والموادة من

(١) الدرر السنية ٨/ ٣٣١.
(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٦٥.
(٣) الفتاوى ٨/ ٣٦١.
(٤) الفتاوى ٧/ ٥٢٢.

....

أعمال القلوب، فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله، وذلك يناقض موادة من حاد الله ورسوله، وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم الذم والعقاب، لأجل عدم الإيمان»[١].

والإعراض عن المشركين بالجسد لا يكفي في البراء، بل يجب مع ذلك البغض بالقلب، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «براءة الخليل من قومه المشركين ومعبوديهم ليست تركاً محضاً، بل صادراً عن بغض وعداوة»[٢].

ومع بغضهم وعداوتهم والبراءة منهم ومن معبوداتهم، فإن الإسلام حرم قتل الكافر المعصوم، وهو الذمي والمعاهد والمستأمن[٣] وحرم سلب ماله، أو ظلمه، أو الاعتداء عليه، قال النبي ﷺ: «من قتل معاهداً، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً» رواه البخاري[٤]. بل يجب مع بغضه دعوته إلى الله بالحكمة والبصيرة، كما فعل النبي ﷺ مع المشركين، ودين الإسلام وسط في معتقد الولاء والبراء، لا إفراط فيه بقتل الكفار المعصومين، ولا تفريط فيه بالموالاة المحرمة أو التولي المخرج من الملة، ويجب على المسلم أن يكون عدلاً في أداء تلك العبادة العظيمة بين الإفراط والتفريط، وأن يكون عمله بها منوطاً بالعلم بها على ضوء ما جاءت به الشريعة *.

(١) الفتاوى ١٠/ ٧٥٣.
(٢) الفتاوى ١٤/ ٢٢٤.
(٣) الذمي: هو الكافر الذي أقر في دار الإسلام على كفره بالتزام الجزية ونفوذ أحكام الإسلام فيه.
والمعاهد: هو الرجل من أهل الحرب يدخل إلى دار الإسلام بأمان.
والمستأمن: هو الكافر يدخل ديار المسلمين بأمان.
مجمع الأنهر ١/ ٦٥٥، رد المحتار ١/ ١٦٦، نيل الأوطار ٧/ ١٨، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ١/ ٢٣٨.
(٤) رقم (٣١٦٦) ٢/ ٤٠٩ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

....

محبة المشركين تنقسم إلى قسمين

واعلم أن الولاء والبراء مع المشركين ينقسم إلى قسمين:

التولي

١ ـ التولي، ومعناه: محبة الشرك وأهله، أو نصرة الكفار على المؤمنين، أو الفرح بذلك، أو مظاهرتهم ومعونتهم على المسلمين، وهذا كفر أكبر قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، قال البغوي ـ رحمه الله ـ: «إيمان المؤمن يفسد بموادة الكفار»[١]. وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ أن هذا من نواقض الإسلام قال ـ رحمه الله ـ: «الثامن ـ أي: من نواقض الإسلام ـ مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾»[٢].

الموالاة

٢ ـ الموالاة وهي: الموادة والصداقة، ضد المعاداة والمحادة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فإن الولاية ضد العداوة، والولاية تتضمن المحبة والموافقة، والعداوة تتضمن البغض والمخالفة»[٣].

وضابطها: أن تكون محبة أهل الشرك لأجل الدنيا، ولا تكون معها نصرة، وهذا كبيرة من الكبائر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة»[٤].

الفرق بين الموالاة والتولي

والفرق بين التولي والموالاة: أن التولي كفر أكبر يخرج من الملة، والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب، وقد سئل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٢.

(٢) رسالة نواقض الإسلام للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ.

(٣) الفتاوى ٥/ ٥١٠.

(٤) الفتاوى ٧/ ٥٢٣.

....

ـ رحمه الله ـ[1] عن الفرق بين الموالاة والتولي؟ فأجاب: «التولي كفر يخرج من الملة، وهو كالذب عنهم وإعانتهم بالمال والبدن والرأي، والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب، كبلِّ الدواة[2]، أو بري القلم، أو التبشش لهم، أو رفع السوط لهم»[3] *.

(١) هو عم الشيخ محمد بن إبراهيم ومفتي الديار في زمانه.

(٢) الدواة هي المحبرة.

(٣) الدرر السنية ٨/ ٤٢٢.

....

صور من موالاة وتولي المشركين

وللموالاة والتولي صور عديدة ذكرها الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ بقوله: «قد نهى الله سبحانه عن موالاة الكفار وشدد في ذلك، وأخبر أن من تولاهم فهو منهم، وكذلك جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ وأخبر النبي ﷺ أن «من أحب قوماً حشر معهم» رواه الحاكم والبيهقي[(١)]، ويفهم مما ذكرنا من الكتاب والسنة والآثار عن السلف[(٢)] أمور من فعلها دخل في تلك الآيات، وتعرض للوعيد بمسيس النار، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه: **(أحدها)** التولي العام، **(الثاني)** المودة والمحبة الخاصة، **(الثالث)** الركون القليل قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾، فإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلوات الله وسلامه عليه فكيف بغيره؟!، **(الرابع)** مداهنتهم ومداراتهم قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، **(الخامس)** طاعتهم فيما يتولون وفيما يشيرون كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، **(السادس)** تقريبهم في الجلوس والدخول على أمراء الإسلام، **(السابع)** مشاورتهم في الأمور، **(الثامن)** استعمالهم في أمر من أمور المسلمين، أيُّ أمر كان، إمارة أو عمالة أو كتابة، أو غير ذلك، **(التاسع)** اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، **(العاشر)** مجالستهم ومزاورتهم والدخول عليهم، **(الحادي عشر)** البشاشة لهم والطلاقة، **(الثاني عشر)** الإكرام العام، **(الثالث عشر)** استئمانهم وقد خونهم الله، **(الرابع عشر)** معاونتهم في أمورهم ولو بشيء قليل، كبري القلم،

(١) المستدرك رقم (٤٢٩٤) ٣/ ١٨، والسنن الكبرى رقم (١٨٦٤٢) ٩/ ٢٣٤ من حديث علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) ذكر ذلك مفصلاً في أول رسالته هذه.

....

وتقريب الدواة، ليكتبوا ظلمهم، **(الخامس عشر)** مناصحتهم[(١)]، **(السادس عشر)** اتباع أهوائهم، **(السابع عشر)** مصاحبتهم ومعاشرتهم، **(الثامن عشر)** الرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم، **(التاسع عشر)** ذكر ما فيه تعظيم لهم كتسميتهم سادات وحكماء، كما يقال للطواغيت: السيد فلان، أو يقال لمن يدعي علم الطب «الحكيم» ونحو ذلك، **(العشرون)** السكنى معهم في ديارهم كما قال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» رواه أبو داود[(٢)]، إذا تبين هذا، فلا فرق في هذه الأمور بين أن يفعلها مع أقربائه منهم، أو مع غيرهم، كما في آية المجادلة»[(٣)].

والتشبه بهم في الظاهر يورث مودتهم ومحبتهم في الباطن، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»[(٤)].

والكافر يعامل معاملة ظاهرة بدون ميل ومحبة في القلب أو تشبه في الظاهر، فالإيمان الواجب يوجب معاداة من حاد الله ورسوله، كما أنه يستلزم محبة من يحب الله ورسوله وموالاتهم، فمن والى الكافرين فقد ترك واجباً من واجبات الإيمان، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «لا بد في الإيمان من

---

(١) أي: استشارتهم.

(٢) سنن أبي داود رقم (٢٧٨٧) ٣/ ٩٣ من حديث سمرة، عن سمرة بن جندب ﷺ قال: أما بعد قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» وروى أبو داود أيضاً من حديث جرير ابن عبد الله ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل وقال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: لا تراءى ناراهما». سنن أبي داود رقم (٢٦٤٥) ٣/ ٤٥.

(٣) الدرر السنية ٨/ ١٥٤.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٢١.

....

محبة القلب لله ولرسوله، ومن بغض من يحاد الله ورسوله»[1].

الولاء والبراء مع أهل الفسق

وكما أن الكفار يجب بغضهم فكذلك الفاسق يبغض لفسقه، ولكن يُعطى من الموالاة بقدر إيمانه، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والواجب موالاة أولياء الله المتقين من جميع الأصناف، وبغض الكفار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسق الملِّي يُعطى من الموالاة بقدر إيمانه، ويعطى من المعاداة بقدر فسقه»[2].

فالواجب على المؤمن معاداة من حادَّ الله ورسوله وبُغْضُه ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته إلى الحق، فالمؤمن يحب أولياء الله ويتعاون معهم على الخير، ويكره أعداء الله ويبغضهم ويعاديهم في الله حتى وهو يدعوهم إلى الله، ومن عادى في الله من يبغضه الله، عوضه الله مودة عظيمة لغيره، فإبراهيم عليه السلام لما اعتزل أباه وقومه لكفرهم، أقر الله عينه بإسماعيل ومن ثم إسحاق، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا من سلالته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾*.

(١) الفتاوى ٧/ ١٤٧.

(٢) الفتاوى ٢٨/ ٥٧٨.

اعلم[1] أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية، ملة إبراهيم

قال المصنف ـ رحمه الله ـ: **(اعلم أرشدك الله)** وهداك ووفقك **(لطاعته)**، والدعاء بالرشاد إلى الطاعة هو من خير الأدعية وأجمعها، وقد قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا علي «قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسداد سداد السهم» رواه مسلم[2]. وإذا نال العبد طاعة الله نال الخير كله.

ما هي الحنيفية؟

ولكي تظفر بالخير اعلم **(أن الحنيفية)** هي إفراد الله بالعبادة بأن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين، فلا تصرف أي نوع من أنواع العبادة إلا لله وحده، فمن فعل ذلك فهو المسلم الحنيف المقتفي أثر المرسلين.

والحنيف: مشتق من الحنف وهو الميل، فالحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد، والحنيف المستقيم المستمسك بالإسلام، المقبل على الله، المعرض عن كل ما سواه، وكل من كان على دين إبراهيم عليه السلام فهو حنيف، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالدين الحنيف، هو الإقبال على الله وحده، والإعراض عمّا سواه»[3].

والحنيفية: هي **(ملة)** إمام الحنفاء **(إبراهيم)** عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهي أيضاً ملة ودين جميع المرسلين قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يأت نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا من نسله، لذا قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ فهو أبو الأنبياء عليهم السلام، ودين جميع الأنبياء هو الإسلام قال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾، وكل دين سوى الإسلام فهو

(١) هذه هي الرسالة الثالثة من الرسائل الثلاث التي سبقت ثلاثة الأصول.

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٧٢٥) ٤/ ٢٠٩٠.

(٣) الفتاوى ٩/ ٣١٩.

أن تعبد الله مخلصاً له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ومعنى يعبدون: يوحدون.

باطل قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ودين الحنفاء **(أن تعبد الله)** وتوحده **(مخلصاً)** أي: مفرداً **(له)** القصد في **(الدين)** أي: العبادة، ومتبرءاً من عبادة من سواه ومعتقداً بطلانها، وبذلك أمر الأنبياء، قال الله لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وأمر به جميع الناس قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

ولا صلاح للنفس في دنياها وآخرتها إلا بالتوحيد والإخلاص، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك»(١).

الأمر الواجب على جميع الناس

(وبذلك) أي: بالعبادة الخالصة لله **(أمر الله جميع الناس)** من ذكر وأنثى **(وخلقهم لها)** أي: للحنيفية ملة إبراهيم، وهي الأمر بإخلاص العبادة لله وحده **(كما قال تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**)** أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم، **(ومعنى يعبدون)** أي: **(يوحدون)** بأن يوحدوا ويفردوا قصد القلب في الأعمال لله.

والقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يطيب ولا يطمئن، إلا بالإخلاص في عبادة الله، ولو حصل له كل ما تلتذ به المخلوقات، وإذا قوي إخلاص دين العبد لله كملت عبوديته واستغناؤه عن الخلق، وعبادته سبحانه تكون بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ومن تدبر أحوال

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٦٥٢.

....

العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي غيره عموماً وخصوصاً»[1]، ولن يستغني القلب عن الخلق إلا بأن يكون الله هو مولاه، فلا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه *.

(١) الفتاوى ١٥/ ٢٥.

أعظم أمر من السماء

(وأعظم ما أمر الله به) في كتابه، وأعظم ما أمر به رسله أممهم هو **(التوحيد)** بإخلاص الدين لله وحده، وهو أعظم فريضة فرضها الله على العباد، علماً وعملاً، ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه تكفر الذنوب، وتستحق الجنة، وبه النجاة من النار، ومن لم يمتثل لهذا الأمر العظيم فجميع أعماله لا تقبل عند الله قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

أهمية التوحيد

ولأهمية التوحيد جاء القرآن كله متضمناً له قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «غالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن، فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد»[1].

أقسام التوحيد

والتوحيد هو الأصل الذي يبنى عليه الدين كله، وهو أعظم سبب لانشراح الصدر، وهو ملجأ الطالبين، ومفزع الهاربين، ونجاة المكروبين،

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٤٩.

وهو إفراد الله بالعبادة.

وغياث الملهوفين، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد، فلا يلقي في الكُرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها»(١).

والتوحيد الذي وقع فيه النزاع بين الرسل وأقوامهم هو توحيد الألوهية، **(و)** تعريفه: **(هو إفراد الله بالعبادة)** كالذبح والنذر والدعاء فلا تصرف أي نوع من أنواعها لغير الله.

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ توحيد الربوبية، وهو إفراد الله بأفعاله.

٢ ـ توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بأفعال العباد.

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ.

ومن حقق التوحيد بأقسامه الثلاثة فهو الموحد حقاً *.

---

(١) الفوائد ص٩٥.

وأعظم ما نهى عنه الشرك، وهو دعوة غيره معه،

أعظم ذنب في الأرض

وعلى العبد أن يعلم أن **(أعظم ما نهى)** الله **(عنه)** في كتابه، وأعظم ما نهت عنه الرسل هو **(الشرك)**، وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله.

والشرك بالله أعظم من قتل النفس ومن قطع الطريق والسرقة وهو أعظم الفساد في الأرض، ولا نجاة للعباد إلا بتوحيد الله وإفراده بالعبادة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وبالجملة، فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ»[(١)].

وأعظم ذنب عصي الله به هو الشرك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وسئل النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» متفق عليه[(٢)]، وقال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» متفق عليه[(٣)].

والشرك هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي، لأنه تسوية للمخلوق الناقص بالخالق الكامل في صفاته جلَّ وعلا. ومن أشرك في توحيد الألوهية فهو مشرك وإن أقر بتوحيد الربوبية، فلو فرض أن رجلاً يقر إقراراً كاملاً بتوحيد الربوبية، ولكنه يذهب إلى القبر فيدعو صاحبه من دون الله، أو ينذر له قرباناً يتقرب به إليه، فإن هذا قد وقع في الشرك الأكبر.

تعريف الشرك

(و) تعريف الشرك: **(هو دعوة غيره معه)** أي: دعوة غير الله معه

---

(١) الفتاوى ١٥/ ٢٤.

(٢) البخاري رقم (٤٢٠٧) ٤/ ١٦٢٦، ومسلم رقم (٨٦) ١/ ٩٠ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البخاري رقم (٥٦٣١) ٥/ ٢٢٢٩، ومسلم رقم (٨٧) ١/ ٩١ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

سبحانه، بأن يطلب مع الله غيره، أو يسأل مع الله آخر، أو يجعل أحداً واسطة بينه وبين الله، من قبر أو ولي، بالدعاء أو الاستعانة والتوجه إليه، وغير ذلك من أنواع العبادة، وإن شئت قلت الشرك: هو مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

ومن مات على الشرك، استحق دخول النار وحرم دخول الجنة قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، وقال عليه الصلاة السلام: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً، دخل النار» رواه البخاري(١)، **(والدليل)** على أن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأنَّ أعظم ما نهى الله عنه هو الشرك **(قوله تعالى**: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾) أي: أفردوه جلَّ وعلا بالعبادة، (﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾) فلا تجعلوا معه أنداداً ولا نظراء ولا أشباه لا في قليل الشرك ولا في كثيره، واحذروا الشرك وغوائله وأسبابه.

فعلى العبد أن يحقق الإيمان به سبحانه، وأن يكفر بضده من الأنداد والشركاء، فأول أمر أُمر به العباد الأمر بعبادته وتوحيده، وأول نهي هو النهي عن ضده ثم أعقب تعالى ببقية الواجبات فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ﴾، وتصدير الآية بالتوحيد والنهي عن الشرك، يدل على عظمة التوحيد وقبح الشرك*.

(١) رقم (٤٢٢٧) ٤/١٦٣٦ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة[1] التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ.

الأصول الثلاثة التي يجب معرفتها

يجب على كل مكلف من ذكر أو أنثى، أن يعرف ثلاثة أصول عظيمة، هي أول ما يسأل عنها العبد في قبره، فإن ثبت على السؤال كان من الناجين، وإن ضل عن جواب تلك الأصول كان من الهالكين.

(فإذا) سئلت عنها و**(قيل لك)**: **(ما)** هي **(الأصول الثلاثة التي يجب على)** كل **(إنسان)** مكلف **(معرفتها)** والعمل بمقتضاها؟

(فقل) له: الأصل الأول: **(معرفة العبد ربه)** وهذا أصل الأصول، لتعبده على بصيرة ويقين، فتعرفه سبحانه بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، من وحدانيته وأفعاله وأسمائه وصفاته.

(و) قل له: الأصل الثاني: معرفة العبد **(دينه)** الذي تعبدنا به، وهو فعل ما أوجب علينا فعله واجتناب ما أوجب علينا تركه.

(و) قل له: الأصل الثالث الواجب علينا معرفته هو: معرفة العبد **(نبيه محمداً ﷺ)**، فإنه الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ الرسالة، ولا طريق لنا إلى ما تعبدنا به سبحانه إلا بما جاء به النبي ﷺ.

وذكر المصنف ـ رحمه الله ـ هذه الأصول الثلاثة مجملة، ثم ذكرها بَعْدُ مفصلة أصلاً أصلاً، تتميماً للفائدة، وتنشيطاً للقاريء، فإنه إذا عرفها مجملة وعرف ألفاظها وأتقنها، بقي متشوفاً إلى معرفة معانيها.

أهميتها

وهذه الأصول الثلاثة تجمع الدين كله، من ربك؟ وما دينك؟ ومن هو نبيك؟ وهي التي يُسأل عنها العبد في قبره، ومعرفتها فقط دون اعتقادها

---

(١) هذه بداية رسالة ثلاثة الأصول وما سبقها هي: رسائل متفرقة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وضعها بعض تلامذته قبل ثلاثة الأصول كالتقدمة لها كما حدثني بذلك الوالد والشيخ صالح بن غصون ـ رحمهما الله ـ.

....

والعمل بما دلت عليه لا تنجي العبد من العذاب، وإنما ينجيه معرفتها واعتقادها مع العمل بما دلت عليه، ولا يثبت الإنسان عند السؤال في قبره إلا بذلك. وهذه الأصول الثلاثة ورد ذكرها مجتمعة في حديث العباس بن عبد المطلب ﵁ أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» رواه مسلم[١]. ومن رضي بهذه الأصول الثلاثة وقالها عن يقين بعد قول المؤذن «أشهد أن محمداً رسول الله»، غفر له ما تقدم من ذنبه، يقول النبي ﷺ: «من قال: حين يسمع المؤذن، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً غفر له ذنبه» رواه مسلم[٢].

قال الشيخ عبد اللطيف[٣] بن عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ: «الرضا بهذه الأصول الثلاثة، قطب رحى الدين، وعليه تدور حقائق العلم واليقين»[٤] *.

(١) رقم (٣٤) ١/ ٦٢ من حديث العباس بن عبد المطلب ﵁.
(٢) رقم (٣٨٦) ١/ ٢٩٠ من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁.
(٣) هو جد الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمهما الله ـ.
(٤) الدرر السنية ٨/ ٣٥٥.

فإذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبود سواه،

الأصل الأول: معرفة العبد ربه

ثم شرع المصنف ـ رحمه الله ـ في تفصيل هذه الأصول الثلاثة أصلاً أصلاً، وبدأ بالأصل الأول، وهو معرفة العبد ربه، فقال لك:

(إذا) سئلت و **(قيل لك)**: **(من ربك؟)** أي: من معبودك وخالقك ورازقك الذي ليس لك معبود سواه؟

(فقل) له: **(ربي)** ومعبودي هو **(الله)** لا أعبد إلا إياه، ولا أصرف شيئاً من أنواع العبادة لغيره، فلا أركع، ولا أنحر، ولا أنذر، ولا أطوف إلا لله، كيف أكفر به وأعبد غيره.

وهو **(الذي)** أوجدني من العدم؟ و**(رباني)** بالنعم الظاهرة والباطنة؟ وفرج كروبي؟ وأغدق عليَّ النعم؟ وأسبغ عليَّ الخيرات؟ قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

بل **(وربَّى جميع العالمين بنعمه)** وأغدق عليهم جزيل آلائه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والرب هو: المربي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة»[1]، وقد مضى على الإنسان زمن طويل من العصور والدهور لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: موجوداً، بل كان معدوماً غير موجود ثم أوجده الله من العدم ورزقه النعم ليعبده وحده.

(وهو معبودي) الذي أصرف إليه جميع أنواع العبادة، **(ليس لي معبود سواه)** أتذلل له أو أصرف له شيئاً من العبادات، فكفى بربي معبوداً فهو المستحق للعبادة.

---

(١) الفتاوى ١٤/ ١٣.

والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكل ما سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم.

(والدليل) على أن الله أغدق عليك وعلى جميع الخلق بالنعم **(قوله تعالى)** في أول آية في كتابه العظيم:

(﴿ٱلْحَمْدُ﴾) وهو الثناء على المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، والألف واللام في الحمد للاستغراق أي: جميع المحامد (﴿لِلَّهِ﴾) المألوه المعبود بحق، فجميع المحامد له لا لغيره (﴿رَبِّ﴾) وخالق ورازق ومالك ومدبر جميع (﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) من إنسٍ وجنٍّ وملائكةٍ وغيرهم.

(وكل ما سوى الله) مما في الكون من الجن والإنس والجبال والأشجار فهو **(عالَم)** والله هو الخالق، وسمي العالَم عالَماً؛ لأنه علامة على خالقه وموجده ومالكه.

(وأنا) وأنت وجميع الخلق **(واحد من)** جملة **(ذلك العالم)** وتلك المخلوقات العظيمة، وكلنا محتاجون إلى الله في قضاء حاجاتنا وتفريج كرباتنا، فهو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، وهو المستحق بأن يعبد وحده دون من سواه وهذا مدلول كلمة الإخلاص *.

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر،

الدلائل التي تعرف بها ربك

(فإذا) سُئلت و**(قيل لك)**: ما الأدلة التي **(عرفت)** بها **(ربك)** وخالقك الذي تعبده.

(فقل) له: عرفته **(بآياته)** أي: علاماته ودلائله التي نصبها دلالة على وحدانيته وتفرده بالربوبية والألوهية.

وعرفته **(بمخلوقاته)** الباهرة التي أوجدها بعد العدم وجعلها دالة عليه، فكل شيء في الكون وإن دق فهو دال على وحدانيته.

تـأمَّـل سـطـورَ الـكـائـنـات فـإنـهـا ... من المَلِكِ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأملتَ خطَّها ... ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

والتفكر في الكون يزيد الإيمان ويعلق القلب بالله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس، التفكر في آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به، دون شيء من مخلوقاته»[(١)].

(ومن) أعظم **(آياته)** المشاهدة بالأبصار الدالة على وحدانيته: إقبال **(الليل)** وإدبار **(النهار)** وعدم اجتماعهما في زمن واحد، بل كل منهما يطلب الآخر، طلباً سريعاً لا يفصل بينهما شيء، هذا يقبل وذاك يدبر، وهما يتعاقبان علينا تسخيراً لنا.

ومن الآيات الباهرات الدالة على وحدانية الله وتدبيره **(الشمس)** المشرقة وهي سراج الكون، **(والقمر)** المضيء في الدهماء، آيتان تجريان على مسار دقيق بهر الخلق، هذه تشرق وذاك يغرب، ووقفوا أمام سيرهما مندهشين، جري منظم، وسير متقن، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يدرك أحدهما الآخر قال

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٢١.

الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾، ولا يتغير مسار أحدهما إلى غير ما قدّر الله ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وهذه الشمس على كبر حجمها إذا غربت تسجد تحت العرش، يقول أبو ذر رضي الله عنه: «كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال: يا أبا ذر، أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾» رواه البخاري[1]، وتستأذن ربها في الإشراق مرة أخرى يقول أبو ذر رضي الله عنه: «دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس فلما غربت الشمس قال: يا أبا ذر، هل تدري أين تذهب هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب تستأذن في السجود فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها» رواه البخاري[2]، وفي الآخرة تكور وتجمع قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: «﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ أي: جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها»[3].

(ومن مخلوقاته) العظيمة: **(السموات السبع)** وسعتها وارتفاعها، **(والأرضون السبع)** وامتدادها، وسعة أرجائها، وتقدير أقواتها.

(وما فيهن) أي: ما في السموات السبع من الكواكب الزاهرات، والآيات الباهرات، وما في الأرضين السبع من الجبال والبحار، وأصناف المخلوقات من الحيوانات والنباتات، وسائر الموجودات.

(وما بينهما) أي: ما بين السموات والأرض من الهواء وغيره، وما بدا

(١) البخاري رقم (٣٠٢٧) ٣/ ١١٧٠.
(٢) البخاري رقم (٦٩٨٨) ٦/ ٢٧٠٠.
(٣) تفسير الطبري ٣٠/ ٦٥.

....

لهم من سيرهم من موطنٍ إلى موطنٍ في جوِّ السماء، وما ظهر لهم من منافع من نقل ما يتحدثون به وهم في بلدٍ، وغيرهم في بلد آخر، فسبحان الله ربِّ العرش العظيم، فحري بكل مسلم التفكر في آيات الله ومخلوقاته. قال ابن جزي المالكي ـ رحمه الله ـ: «التفكر هو ينبوع كل حال ومقام، فمن تفكر في عظمة الله اكتسب التعظيم، ومن تفكر في قدرته استفاد التوكل، ومن تفكر في عذابه استفاد الخوف، ومن تفكر في رحمته استفاد الرجاء، ومن تفكر في الموت وما بعده استفاد قصر الأمل، ومن تفكر في ذنوبه اشتد خوفه، وصغرت عنده نفسه»(١) *.

---

(١) القوانين الفقهية ص٢٨٤.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، **وقوله تعالى**: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ

الدليل على بعض آيات الله

(**والدليل**) على أن الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله:

(**قوله تعالى**: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾) الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده: (﴿ٱلَّيْلُ﴾) بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه (﴿وَٱلنَّهَارُ﴾) بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه (﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾) اللذان لا تستقيم معايش العباد إلا بهما.

(﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾) فإنهما مدبَّران مسخَّران مخلوقان، لا يستحقان أن يسجد لهما.

(﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾) لا لغيره ووحدوه فهو (﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾) فإنهما وإن كبر حجمهما فإن ذلك ليس منهما وإنما هو من خالقها.

(﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾) وحده جلَّ وعلا (﴿تَعْبُدُونَ﴾) فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين.

(**و**) الدليل على أن السموات السبع، والأرضين السبع، من مخلوقات الله الدالة عليه جلَّ وعلا:

(**قوله تعالى**: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾) وما فيهما والذي أتقن خلقهما وأحكم بنيانهما (﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة (﴿ثُمَّ﴾) لما قضاها وأودع فيها من أمره ما أودع (﴿ٱسْتَوَىٰ﴾) جلَّ وعلا (﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾) العظيم الذي وسع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وهو سبحانه (﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ﴾) أي: يجعل الليل المظلم يغطي (﴿ٱلنَّهَارَ﴾) المضيء، فيعم الظلامُ وجهَ الأرض ويبقى كل من عليها في ظلام، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها.

(﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾) أي: سريعاً، كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب الليل، طلباً لا فتور فيه ولا تأخير، حتى يطوي الله هذا العالم وينتقل العباد إلى دار القرار.

(﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾) الثابتة والسائرة (﴿مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾) وتدبيره، وعلمه وحكمته.

(﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ﴾)؟ بلى إن له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات، ويتضمن أحكامه الكونية القدرية.

(﴿وَ﴾) ألا له (﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾)؟ بلى إن له الأمر المتضمن للشرائع والنبوات، وهذا يتضمن جميع أحكامه الدينية الشرعية.

(﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾) أي: بلغ في البركة النهاية، وهي صيغة لا تصلح إلا لله، فهو سبحانه عظم وتعالى وكثر خيره، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، وهو سبحانه (﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾) المنعم عليهم بخيراته وسابغ فضله*.

والربُّ هو المعبود والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾،

الربُّ هو المعبود وحده دون من سواه

(والربُّ) الخالق لتلك المخلوقات العظيمة، من السموات السبع، وما فيهن وما بينهما، هو المالك المتصف بصفات الكمال و**(هو المعبود)** المستحق للعبادة وحده دون من سواه، وما سواه مخلوق مربوب ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

(والدليل) على أن الربَّ هو المعبود **(قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾) من ذكر وأنثى (﴿ٱعۡبُدُواْ﴾) ووحدوا (﴿رَبَّكُمُ﴾) فهو المنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو (﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾)، وأوجدكم من العدم، (﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾) كذلك خلقهم الله بعد أن لم يكونوا شيئاً، وذكَّركم الله بهذه النعمة العظيمة (﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾) خالقكم وتأتمرون بأوامره وتجتنبون نواهيه فهو (﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾) بساطاً ممهداً لكم تستقرون عليها، وتقضون عليها معايشكم.

(﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾) جعلها (﴿بِنَآءٗ﴾) لكم وقبة مضروبة عليكم، وسقفاً محفوظاً مزيناً بالمصابيح والعلامات التي تهتدون بها في ظلمات البر والبحر، أرضٌ تقلكم وسماء تظلكم، لا غنى لكم عن إحداهما.

(﴿وَأَنزَلَ مِنَ﴾) السحاب الذي في (﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾) عذباً مباركاً (﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾) المتنوعة من نخيلٍ وفواكهَ وزروع وغيرها (﴿رِزۡقٗا﴾) طيباً (﴿لَّكُمۡۖ﴾) لتستمتعوا بالطيبات، وتستعينوا بها على طاعة الله.

ومن كانت هذه نعمه فهو المستحق أن يعبد وحده، فاشكروا نعمه، ومن شُكْرِهَا: (﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾) وشركاء ونظائر معه في العبادة (﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾) بطلان ذلك وأنها لا تستحق العبادة فكيف تعبدون مع الله

قال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله ـ: «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة».

آلهة أخرى مع علمكم ببطلان ذلك؟! وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الله وبطلان الشرك.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وقد احتج عليهم تعالى في هذه الآية بما أقروا به وعلموه من توحيد الربوبية، على ما جحدوه وأنكروه من توحيد الألوهية، فإنه تعالى كثيراً ما يقرر في كتابه توحيد ألوهيته بتوحيد ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل الأوضح والبرهان الأعظم على توحيد الألوهية.

وفعل العبادة من غير توحيد ليست بعبادة، فمن عبد الله تارة وأشرك معه غيره فليس بعابد لله، يدل لذلك أن الله سمى الذين يخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار وتلاطم الأمواج يفزعون ويلجئون إليه وحده، ويعرفون في كربتهم أن تلك الآلهة ليست شيئاً وأنها لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كله سمَّاهم الله مشركين بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. فالتوحيد لا يسمى توحيداً إلا بإفراد الله بجميع أنواع العبادات، فمن أطاعه في جميع ما أمره به منها ولم يصرف أي شيء منها لغيره، فقد وحده وإلا فلا.

(قال) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر **(بن كثيرٍ)**، صاحب التفسير، **(ـ رحمه الله ـ)** وأسكنه جناته: **(الخالق)** الموجد **(لهذه الأشياء)** من العدم، من خلق الإنسان والأرض والسماء، وما فيهما من الخيرات والثمار **(هو المستحق للعبادة)**[1]، وغيره مخلوق ضعيف لا يستحقها قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٨٨ ونصه «ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به غيره».

....

دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً، والمعبود لا بد وأن يكون مالكاً للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً»[1] *.

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١.

وأنواع العبادة التي أمر الله بها، مثل: الإسلام والإيمان والإحسان،

فضل تنوع العبادات

ومن فضل الله على عباده أن شرع لهم أنواعاً عديدة من العبادات يتقربون بها إليه، والمرء لا يعلم بأيها يدخل الجنة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار، وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده بتنوعها والابتهاج بها والالتذاذ هناك، على حسب مزيده من الأعمال وتنوعه فيها في هذه الدار، وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة، أثراً وجزاءً ولذةً وألماً يخصه لا يشبه أثر الآخر وجزاءه، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار، وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب، كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته، كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه»[(١)].

والعبد تعلو درجته عند ربه إذا ازدادت عبوديته له، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته»[(٢)].

أجل أنواع العبادات

ولما بين المؤلف أن الواجب أن نعبد الله وحده ذكر شيئاً من أنواع العبادة فقال: **(وأنواع)** وأصناف **(العبادة التي أمر الله بها)** عباده وتعبدهم بها كثيرة جداً، ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ منها سبعة عشر مثالاً لأنواعها، فقال:

(مثل الإسلام والإيمان والإحسان)، وهذه الثلاثة أعلى مراتب الدين، وأهم أنواع العبادة، لذلك بدأ المصنف بها، فالإسلام بأركانه من صلاة وصيام عبادة، وهكذا الإيمان بأعماله الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٧٧.

(٢) الفتاوى ١٠/ ١٧٦.

ومنه: الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والخشوع والخشية والإنابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها

واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وكذلك الخوف والمحبة والرجاء، إلى غير ذلك، فكل ما يتعلق بالقلوب داخل في العبادة، بل هو أعلى أنواع العبادة وأعظمها، ومرتبة الإسلام هي أوسع دوائر الدين، يليها مرتبة الإيمان وهي أضيق من دائرة الإسلام، ثم دائرة الإحسان وهي أضيق تلك الدوائر، والداخلون في دائرة الإحسان هم الأقل من عباد الله، وهي مرتبة زاكية عالية لا ينالها إلا من اصطفاهم الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «أحوال القلوب وأعمالها، مثل محبة الله ورسوله ﷺ وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر له، والإنابة إليه، وإخلاص العمل له، مما يتفاضل الناس فيه تفاضلاً، لا يعرف قدره إلا الله عزَّ وجل»(١).

أنواع من العبادات

(ومنه): أي: ومن أنواع العبادات أيضاً التي أمر الله بها **(الدعاء)** وإنزال الحوائج به سبحانه، **(والخوف)** منه جلَّ وعلا، **(والرجاء)** والطمع بما عند الله، **(والتوكل)** وتفويض الأمور إليه، **(والرغبة)** فيما عند الله، **(والرهبة)** منه جلَّ وعلا، **(والخشوع)** لله، **(والخشية)** منه، **(والإنابة)** إلى الله والرجوع إليه، **(والاستعانة)** به سبحانه، **(والاستعاذة)** باللجوء إليه **(والاستغاثة)** به جلَّ وعلا، **(والذبح)** له وحده، **(و)** كذلك **(النذر)** لا يكون إلا له وحده.

(وغير ذلك من أنواع العبادة) المتنوعة **(التي أمر الله بها)** كبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، وحسن الخلق، وكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فهو عبادة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «العبادة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة

---

(١) الفتاوى ٧/ ٤٠٩.

....

والظاهرة»[١]، فالعبادة تشمل جميع أنواع الطاعات، وتتضمن كمال الحب، وكمال التعظيم، وكمال الرجاء والخشية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «العبودية تجمع كمال الحب، في كمال الذل، وكمال الانقياد لمراضي المحبوب وأوامره، فهي الغاية التي ليس فوقها غاية»[٢] *.

---

(١) الفتاوى ١٠/١٤٩.

(٢) مدارج السالكين ٣/٤٤١.

كلُّها لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ . **فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر،**

وجميع أنواع العبادة (**كلُّها لله تعالى**) لا يصلح منها شيء لغير الله، (**والدليل**) على ذلك (**قوله تعالى**: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾) أي: أماكن الصلوات أو أعضاء السجود كلها ملك (﴿لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ﴾) ولا تسجدوا بها لغيره، ولا تشركوا في الأرض (﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾) كائناً من كان، فإن الأرض جميعها ملك لله وحده، فأفردوه فيها بالعبادة.

حكم من صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله

(**فمن صرف منها**) أي: من أنواع العبادة التي ذكرها المصنف أو غيرها، ولو (**شيئاً**) يسيراً (**لغير الله**) مثل لو دعا غير الله ـ من الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو من الأموات أو الغائبين أو الأصنام أو الأشجار ـ أو رجاهم، أو خافهم، أو سألهم قضاء الحاجات، أو تفريج الكربات أو غير ذلك (**فهو مشرك كافر**) أي: الشرك الأكبر، والكفر المخرج عن الملة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام، أن العبد لا يجوز له أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله، وأن من عبد ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلاً، أو دعاه، أو استغاث به فهو مشرك»[(١)] .

والفرق بين الشرك والكفر: أن الكفر أعمُّ، فكل مشرك كافر ولا عكس، فمن طاف على قبر، أو دعاه من دون الله، فهو مشرك ويسمى كافراً، ومن استهزأ بشيء من الدين فهو كافر ولا يسمَّى مشركاً، لأنه لم يشرك مع الله أحداً في ذلك بل استهزاؤه كفر، وأما في الآخرة فمآل الكافر والمشرك سواء، فكلاهما مخلد في النار ـ والعياذ بالله ـ، قال تعالى في حق الكافر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، وقال في حق المشرك: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ .

---

(١) الفتاوى ٣/ ٢٧٢.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

الدليل على كفره

(والدليل) على أن من صرف شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر، **(قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَدْعُ﴾) ومن يصرف أيَّ نوع من أنواع العبادة لغير الله كَأَنْ يَدْعُوَ (﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾) من الأموات، أو الأوثان، أو الأحجار، أو غيرها (﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾) أي: لا حجة ولا دليل له (﴿بِهِۦ﴾) أي: بتلك العبادة التي أشرك فيها مع الله، وهذا القيد لا يفهم منه أن هناك من يعبد غير الله بحجة وإنما أُتي به ليبين لهم أنه لا حجة لأحد في دعوى الشرك، فليست عبادتهم عن دليل إنما عن ضلالة وأهواء، لا عن هداية ووحي، فمن فعل ذلك فقد توعده الله بقوله: (﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾) وعقابه (﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾) يوم القيامة بخلوده في النار، (﴿إِنَّهُۥ﴾) أي: من أشرك معه غيره (﴿لَا يُفْلِحُ﴾) لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأولئك هم (﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾) الخارجون عن ملة الإسلام، وفي الآية أوضح برهان على كفر من دعا مع الله غيره، سواء كان المدعو ملكاً، أو نبياً، أو قبراً، أو غير ذلك *.

وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة»، والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ

الدعاء: عبادة

لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ أنواعاً من العبادة مجملة، شرع في ذكر أدلتها، أما الإسلام والإيمان والإحسان فسيذكر أدلتها مفصلة في الأصل الثاني، فبدأ بالدعاء الذي هو أصل العبادات وأساسها فقال: **(وفي الحديث)** الذي يدل على أن الدعاء من أنواع العبادة ما رواه الترمذي(١) أن النبي ﷺ قال: **(الدعاء)** وسؤال الله الحوائج **(مخ)** أي: لبُّ وخالص **(العبادة)** التي أمر الله بها الخلق، كما يفسره الحديث الآخر أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة» رواه أبو داود(٢)، فجعل الدعاء هو عين العبادة، ودعوة الرسل جاءت لتتوجه القلوب إلى سؤال الله وحده، ودعاء وسؤال غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من أنواع الشرك الأكبر المحبط لجميع الأعمال، جاء في الدرر السنية: «اتفق العلماء كلهم، على أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم، فقد كفر»(٣).

والدعاء من أكثر أنواع الشرك وقوعاً بين الخلق جاء في الدرر السنية: «من أعظم أنواعه ـ أي: الشرك ـ وأكثره وقوعاً في هذه الأزمان: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، وهذا متفق عليه أنه من الشرك الأكبر»(٤).

(والدليل) على أن الدعاء عبادة وأن صرفه لغير الله شرك **(قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾**)** وخالقكم (﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾) وأنزلوا بي حوائجكم (﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾) وأعطيكم سؤلكم، (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾) ويعرضون (﴿عَنۡ

---

(١) رقم (٣٣٧١) ٥/ ٤٥٦ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) رقم (١٤٧٩) ٢/ ٧٦ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٣) الدرر السنية ١/ ١٩٦.
(٤) الدرر السنية ١/ ١٩٩.

عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

عِبَادَتِي﴾) ودعائي (﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾) نار (﴿جَهَنَّمَ﴾) ـ والعياذ بالله ـ (﴿دَاخِرِينَ﴾) ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، عقوبة لهم على ما تركوه من عبادة الله التي فرضها عليهم، والعاقل يعلم أن الكروب لا يكشفها إلا الله، لأنه القدير على كشفها قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، والمخلوق لا يصلح أن يُدعى أو يستغاث به من دون الله، لأنه عبد ضعيف يمرض ويموت، لا يملك لنفسه دفع ضر ولا جلب نفع، فكيف يجلبها لغيره؟! قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، فالْجأْ إلى الله وحده، وأنزل به حوائجك، وسله يعطك، واستغفره يغفر لك، وادعه بقلب خاشع خاضع يستجب لك، ومن أنزل حوائجه بالله والتجأ إليه، وتعلق قلبه بربه، وكفر بما يعبد من دون الله، فهو الموحد *.

ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الخوف من الله: عبادة

منزلة الخوف من أجلِّ العبادات القلبية، وهي فرض على كل أحد، وهو ركن العبادة الأعظم، ولا يستقيم إخلاص الدين لله إلا به.

والخوف: «هو تألم القلب وحركته بسبب توقع مكروه في المستقبل»[(١)]، والخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.

وهناك فرق بينه وبين الوجل والخشية والرهبة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الوجل، والخوف، والخشية، والرهبة، ألفاظ متقاربة غير مترادفة»[(٢)] أي: معانيها مختلفة.

والفرق بين الخوف والوجل: أن الخوف: تألم القلب على شيء يخاف منه في المستقبل، كرجل يخاف من مجاعة يتوقع أن تصيبه بعد شهر.

وأما الوجل: فهو رجفان القلب وحركته على شيء مخوف واقع عليه الآن، كرجل رأى أسداً فرجف قلبه من مشاهدته، فرجفان القلب حال المشاهدة يسمى وجلاً.

فتألم القلب على أمر مخوفٍ متوقعٍ في المستقبل يسمى خوفاً، وتألمه من أمر واقع عليه الآن يسمى وجلاً.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأما الوجل: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه، وعقوبته، أو لرؤيته»[(٣)].

(ودليل) أن **(الخوف)** عبادة من العبادات لا يصرف إلا لله **(قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾**)** أي: المشركين فإن نواصيهم بيدي، (﴿وَخَافُونِ﴾) فأنا ربكم الذي ينصر أولياءه الخائفين منه (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾) بي.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٥١٣، بلغة السالك لأقرب المسالك للصاوي ٤/ ٤٣٨.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٥١٢.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٥١٣. وسيأتي الفرق بين الخشية والرهبة عند ذكرهما مع أدلتهما.

....

والخوف منه سبحانه من أسباب صلاح القلب، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث، فسد فساداً لا يُرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه»[1].

وقد كان الأنبياء أشد الخلق خوفاً من الله، قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، وقال الله لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، «وقد كان النبي ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل[2] من البكاء» رواه النسائي[3].

وكلما كان العبد بالله أعلم كان منه أخوف، ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد ربه، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه وحبه له، وكلما ازداد معرفةً ازداد حياءً وخوفاً وحباً، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال النبي ﷺ: «إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» رواه البخاري[4]، وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» رواه أحمد والترمذي[5]. والخوف من الله عزَّ وجل هو الطريق إلى طاعته، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الخوف من الله، يستلزم العلم به، والعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته»[6]، ولا صلاح للقلب إلا بالخوف من الله، قال أبو سليمان الداراني

فضل الخوف من الله

(١) الفتاوى ١٥/ ٢١.
(٢) أي: كصوت الإناء إذا غلا فيه الماء.
(٣) سنن النسائي رقم (١٢١٤) ٣/ ١٣ من حديث أبي مطرف رضي الله عنه.
(٤) صحيح البخاري رقم (٢٠/ ١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) المسند رقم (٢١٥٥٥) ٥/ ١٧٣، وسنن الترمذي رقم (٢٣١٢) ٤/ ٥٥٦ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٦) الفتاوى ٧/ ٢٤.

....

ـ رحمه الله ـ: «ما فارق الخوف قلباً إلا خرب»[1]، وهو المانع من اتباع الشهوات، قال إبراهيم بن سفيان ـ رحمه الله ـ: «إذا سكن الخوف القلوب، أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها»[2]، وإذا فارق الخوف القلب ضل عن الاستقامة، قال ذو النون ـ رحمه الله ـ: «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق»[3].

والخائف من ربه يمنحه ربه التبصر في آياته ونذره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾، وفي الآخرة تُفَتَّح له الجنان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، ومن عظم وقار الله في قلبه، عظم الله وقاره في قلوب الخلق ومنعهم أن يذلوه.

أركان العبادة

وأركان العبادة الخوف، والرجاء، والمحبة، وكل هذه الأركان الثلاثة يجب على العبد الإتيان بها جميعاً، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «قال بعض السلف: من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديقٌ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروريٌّ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن، وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه»[4]. والمحبة تجلب الخوف والرجاء قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه»[5] *.

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٥١٣.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٥١٣.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥١٣.
(٤) بدائع الفوائد ٣/ ١١.
(٥) مدارج السالكين ٢/ ٤٣.

....

والخوف من حيث هو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أقسام الخوف:

القسم الأول: خوف السِّر وهو أن يخاف من غير الله، من وثن، أو طاغوت، أن يصيبه بما يكره، وهذا شرك أكبر، كأن يخاف من صاحب القبر أن يضره أو يحل عليه عقوبة إذا لم يلجأ إليه، أو يخاف من صاحب القبر أن يصيبه بشيء إذا تنقص ذلك الميت، كما قال جلَّ وعلا إخباراً عن قوم هود أنهم قالوا لنبيهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ فهم خافوا الآلهة أن تصيبهم بسوء ومصيبة، وكقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهذا الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان، يخافونها ويخوّفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد، فكما أنه إذا دعا غير الله، أو سأل غير الله، انتفى عنه الإيمان، فكذلك إذا خاف غير الله قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق، في الحب له، أو الخوف منه، والرجاء له، فهو مشرك»[(١)].

القسم الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس، قال في فتح المجيد: «فهذا حرام، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[(٢)]. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن كيد عدو الله: أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائهم، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه ونهانا أن نخافه»[(٣)].

القسم الثالث: الخوف الطبيعي كخوف الإنسان من السبع، والنار،

---

(١) الفتاوى ٢٧/ ٣٣٩.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣٩٦.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ١٣٠.

....

والغرق، فهذا لا يلام عليه العبد كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

وأما خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ونحو ذلك، فهو أعلى مراتب الإيمان.

كيف تنزع خوفك من البشر؟

والاستسلام لله وتفويض الأمور إليه مما ينزع الخوف من البشر قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والذي يحسم مادة الخوف: هو التسليم لله، فإن من سلَّم لله، واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع»[1].

ومن خاف ربه في الدنيا أمن يوم الفزع في الآخرة، ومن أمن في الدنيا فزع في الآخرة، والله لا يجمع لعباده بين خوفين إما خوف في الدنيا من الله، وإما خوف في الآخرة لمن لم يخف منه في الدنيا، ومن خاف ربه لم يفزعه أحد، بل هو مطمئن القلب ساكن الجوارح.

ومن صح خوفه من الله هرب إليه، وأنْعِمْ بنفس لا تأنس إلا مع الله، ولا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً، وكل عاصٍ لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله.

فراقب ربك في أحوالك وخف من عقابه، تسعد في دنياك وأخراك، والمخلوق إذا خفته استوحشت منه، وهربت منه، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه *.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣١.

....

الرجاء: عبادة

الرجاء عبادة قلبية، وهو: الرغبة والطمع في الحصول على شيء مرجو، وهو يتضمن التذلل والخضوع.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

والتمني يكون مع الكسل.

والرجاء هو الحادي للأعمال قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لولا روح الرجاء، لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدِّمت صوامعُ وبيعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً»[1].

وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء معاً قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء، فيفعل ما أمر به على نور الإيمان راجياً الثواب، ويترك ما نهى عنه على نور الإيمان خائفاً من العقاب»[2].

أنواع الرجاء

والرجاء ثلاثة أنواع:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله، على نور من الله، فهو راج ثوابه، ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فهو راجٍ مغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب»[3].

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٢.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٥٠٢.
(٣) مدارج السالكين ٢/ ٣٦.

....

ومن قوي رجاؤه ازداد عمله الصالح، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «كلما قوي الرجاء جدَّ صاحبه في العمل كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المَغَلِّ[(١)]، غَلَّقَ[(٢)] أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه، قصر في البذر»[(٣)].

والرجاء يحدو بالعبد في سيره إلى الله، ويطيب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولولا الرجاء لما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه[(٤)] الخوف، ويحدوه الرجاء»[(٥)].

محركات القلوب

والعبد يجمع بين المحبة والرجاء والخوف، ولا تحصل العبودية لله إلا بهذه الثلاثة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عزَّ وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

---

(١) أي: نتاج الأرض.
(٢) أي: ملأ.
(٣) الفوائد ص ١٢٩.
(٤) أي: يزجره.
(٥) مدارج السالكين ٢/ ٥٠.

....

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأي شيء يحرك القلوب؟.

قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عزَّ وجل بالذكر الكثير فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثاً، وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو»[1].

متى يقوى الرجاء؟

ويقوى الرجاء كلما قوي العلم بالله، قال ابن القيم ـ رحمه الله: ـ «قوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته»[2].

والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه، فرجاء العبد ثواب الله واستسلامه لربه بانطراحه بين يديه ورضاه بمواقع حكمه فيه، ما ذاك إلا رجاءً منه أن يرحمه ويقيله عثرته ويعفو عنه ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ويتجاوز عن سيئاته، فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد

(١) الفتاوى ١/ ٩٥.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٤٢.

....

والانطراح بالباب، ولا يتصور هذا بدون الرجاء البتة، فالرجاء حياة الطلب، وهو سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب شيء إلى الجواد أن يرجى ويؤمل ويسأل، وكلما قوي رجاء العبد وطمعه في فضل الله ورحمته وتيسير أموره قويت عبوديته لله فهو عبادة عظيمة *.

ودليل الرجاء، قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

دليل أن الرجاء عبادة

(**ودليل**) أن (**الرجاء**) عبادة لا تصرف لغير الله (**قوله تعالى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾) ويأمل (﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾) وموعوده وثوابه (﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾) وهو الموافق لشرع الله، (﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾) لا رياءً ولا سمعةً ولا يصرف العبادة لغير خالقه، بل يجعل أعماله كلها خالصة لوجه الله، فمن جمع بين الإخلاص والمتابعة نال ما يرجو ويطلب، ومن عَدِمَ ذلك فإنه خاسر، وفاته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

وقد أمر الله بتعليق الرجاء به فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾. والمسلم يعلق آماله وأطماعه ورجاءه بالله، قال سبحانه: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. والطامع في رجاء الله يحدو به إلى التأسي بنبيه ﷺ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، ومن لم يرجُ فضل الله عرَّض نفسه للوعيد قال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

الشرك في الرجاء

ومن رجا غير الله مما لا يقدر عليه إلا الله، كمغفرة ذنوبه، أو شفاء مريضه، فقد صرف تلك العبادة لغير الله، ووقع في الشرك الأكبر، لأن هذا طمع في شيء لا يملكه إلا الله، وصرف عبادة الرجاء إلى غير الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسباباً فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع العارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى»(١).

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٢٥٦.

....

ومن رجا مخلوقاً أو تعلق به، انصرف قلبه عن العبودية لله، وصار عبداً لغيره بقدر ما قام في قلبه من التعلق والرجاء فذلّ لغير الله وخضع، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله، إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾»[1]. ومن علق رجاءه بالبشر خذل قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وكل من خاف شيئاً غير الله سلط عليه، كما أن من أحب مع الله غيره عذب به، ومن رجا مع الله غيره خذل من جهته، وهذه أمور تجربتها تكفي عن أدلتها»[2].

رجاء غير الله مذلة

فيجب على العبد أن يعلق رجاءه بالله دون من سواه، فالخلق مجبولون على الضعف، عاجزون عن جلب النفع لأنفسهم ودفع الضر عنهم، وهم عن غيرهم أعجز، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه، إلا خاب ظنه فيه»[3]. ولن يجني من ورائهم سوى الذلة والمهانة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة، أو يدفعوا عنه مضرة، فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه، إما لعجزهم، وإما لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصاً له الدين، أجاب دعاءه وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة»[4].

---

(١) الفتاوى ١/ ٢٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٥٦.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٢٥٧.

(٤) الفتاوى ١٠/ ٦٥٠.

....

فلا تعلق أطماعك وأملك بغير الله، فلن تجني إن فعلت سوى العدم، وذل المسألة والتفريط في عبادة جليلة، وارج كرم الله وعطاءه وجزيل مناه، واطلب منه كشف الحاجات والملمات، فذلك أرفع للدرجات، وأعز للنفس، وفيه تحقيق للمأمول، وأداء عبادة عظيمة، وهي الرجاء *.

....

التوكل: عبادة

التوكل: هو صدق التفويض والاعتماد على الله في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له، وهو عبادة من العبادات، بل هو من أجل أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد، قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولذلك أمر الله به في غير آية من القرآن، أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه»[1]، وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها»[2].

منزلة التوكل

ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «منزلة التوكل قبل منزلة الإنابة، لأنه يتوكل في حصولها، فالتوكل وسيلة والإنابة غاية»[3]. وقد جعل الله التوكل سبباً لنيل محبته قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾، وهو دليل على صحة إسلام المتوكل قال سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾.

حقيقة التوكل

وحقيقته: تعلق القلب بالله والأخذ بالأسباب مع عدم الاعتماد عليها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وسر التوكل وحقيقته: هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص٤١٧.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١١٣.

(٣) مدارج السالكين ١/ ١٣٤.

....

إليها، كما لا ينفعه قوله: «توكلت على الله» مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء آخر»[1].

والتوكل محله السبب، وكماله بالتوكل قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوكل محله الأسباب، وكماله بالتوكل على الله، وهذا كتوكل الحرَّاث الذي شق الأرض وألقى فيها البذر، فتوكل على الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطى التوكل حقه»[2].

ويجب فعل الأسباب مع التوكل ولكن مع عدم الركون إليها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها»[3] *.

(١) الفوائد ص ١٦٤.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٦٤.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ١٢٠.

....

توكل الاضطرار وتوكل الاختيار

والتوكل من حيث نوعه ينقسم إلى قسمين: توكل اضطرار، وهذا لا يتخلف عنه الفرج بإذن الله، وتوكل اختيار، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأً ولا وَزَراً[1] إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة، وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإن كان السبب مأموراً به ذم على تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضاً فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما، وإن كان السبب محرماً حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد، ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق، وإن كان السبب مباحاً نظرت، هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرَّق عليك قلبك، وشتَّت همك، فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبَّب به، فلا تعطل حكمته»[2].

أقسام التوكل:

وينقسم التوكل إلى توكل في الأمور الدنيوية، وتوكل في الأمور الدينية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوكل على الله نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

---

(١) الوزر: الملجأ، وأصل الوزر الجبل المنيع وكل معقل وزر، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، وكل ما التجأت إليه وتحصنت به فهو: وزر، والوزر: الحمل الثقيل، والوزر: الذنب لثقله. لسان العرب ٥/ ٢٨٢.

(٢) الفوائد ص ١٦٣.

....

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه، من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله، كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني، كفاه أيضاً لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه، فأعظم التوكل عليه، التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول ﷺ وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل عليهم الصلاة والسلام وخاصة أتباعهم»[1].

متى يقوى التوكل؟

وإذا قوي توحيد العبد قوي توكله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد يكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله، أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها متصلاً بها»[2].

التوكل عبادة قلبية لا يصرف لغير الله

فالتوكل عبادة قلبية، فإن اعتمد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فذلك هو الشرك الأكبر.

وإن اعتمد على الأحياء الحاضرين من السلاطين ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه من رزق، أو دفع أذى ونحوه، فهو نوع شرك أصغر *.

(١) الفوائد ص ١٦٣.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٢٠.

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾.

(**ودليل**) أن (**التوكل**) عبادة لا يصرف إلا لله (**قوله تعالى**: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾) لا على غيره (﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾) وفوضوا أموركم إليه (﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾) به، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «المعلق على الشرط يُعْدم عند عدمه، وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكل له لا إيمان له، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة»[1].

جزاء المتوكل

ومن يعتمد على الله في أموره فهو كافيه كما في (**قوله تعالى**: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾) ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه (﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾) وكافيه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء، وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضر الذي يتشفى به منه»[2].

ومن كان الله كافيه تيسرت أموره ولم يطمع فيه أحد، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له، هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[3].

ولم يذكر تعالى للتوكل جزاء غير تولي كفاية العبد، ولم يأت في أي

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٢٩.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٤٦٥.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٣٢.

عبادة من العبادات أن الله قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، إلا في مقام التوكل، فدل على عظم شأن التوكل وفضيلته وأنه أجل أنواع العبادة وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ فلا يعجزه شيء أراده، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وأما أرجح المكاسب: فالتوكل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به، وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه»[١].

التوكل الصادق

وراحة النفس في تفويض أمرها لخالقها، ويزداد تعلقها ببارئها إذا تذكرت أن الرب عليم بحالها، رحيم بأمرها، قدير على كشف ضرها، كريم يأجرها على مصيبتها ويخلف لها عوضاً خيراً مما فات عنها، وإذا صدق التوكل على الله تحققت المنى بأمر الله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إن لم يستعن به على طاعاته»[٢].

فعلق قلبك بالله عند طلب السلامة من الشرور، والعافية من الفتن، وحصول الرزق، ودخول الجنة، والنجاة من النار، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وإياك والتعلق بالمخلوق، فإنه عاجز عن كشف الضر، قتور في العطاء، والمخلوق وإن كان له نوع قدرة فلا يعتمد عليه ولو فيما أقدره الله عليه، بل يعتمد على الله وحده، فإن من اعتمد على حسبه ذلَّ، ومن اعتمد على عقله ضلَّ، ومن اعتمد على ماله قلَّ، ومن اعتمد على الناس ملَّ.

(١) الفتاوى ١٠/ ٦٦٢.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١١٤.

....

فاعتمد على الله وحده فإنه كافيك جميع أمورك، وهو متوليها إن ألقيت إليه حاجاتك، وسلَّمت إليه مقاليد أمورك، وأحسن الظن به تعالى وتوكل عليه في جميع أمورك، تحقق عبادة من أجلّ العبادات، فلا ذلة ولا قلة فيمن توكل على الله *.

....

الرغبة عبادة والفرق بينها وبين الرجاء

الرغبة هي: طلب الوصول إلى الشيء المحبوب.

والفرق بين الرغبة والرجاء:

أن الرجاء طمع والرغبة طلب، فمن طمع في دخول الجنة مثلاً، فطمعه هذا يسمى رجاء.

ومن طلبها بالعمل الصالح، فإن طلبه لها هذا وسعيه إليها يسمى رغبة، فكل رغبة رجاء.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والفرق بين الرغبة والرجاء: أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف»[(١)].

وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يرغب إليه وحده جلَّ وعلا فقال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾.

الرهبة: عبادة

والرهبة: هي الخوف والفزع المثمر للهرب من المخوف، فهي خوف مقرون بعمل، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه»[(٢)].

والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر، وعبادتا الرغبة والرهبة تنحسران عن العبد بقدر ذنوبه، وتزيدان بزيادة إيمانه، والعبد ينال التوفيق بإذن الله بقدر تلك العبادة، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إذا أراد بعبده خيراً، وفقه لاستفراغ

(١) مدارج السالكين ٢/ ٥٥.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٥١٢.

وسعه، وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه، فإنهما مادتا التوفيق، فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق»[1].

الخشوع عبادة لا يصرف إلا لله

والخشوع هو: الذل لعظمة الله، ويكون في القلب والجوارح، وهو قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والخشوع: الخضوع لله تعالى، والسكون والطمأنينة إليه بالقلب والجوارح»[2].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح وهي تظهره»[3]. وكلما خشع القلب لله، كان أكمل له عبودية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأكمل الخلق عبودية، أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة»[4].

ومن فضل الله على عباده، أنَّ من رغب وطمع فيما عند الله أُجر، ومن رهب من عذاب الله أمَّنه الله، ومن خشع قلبه وجوارحه لله عاش عزيزاً في الحياة، ولم يخضع لأحد من الخلق.

دليل أن الرغبة والرهبة والخشوع عبادة

(ودليل) أن **(الرغبة)** فيما عند الله، **(والرهبة)** من عذابه، **(والخشوع)** والخضوع له وحده، وأنها من أنواع العبادة، ما ذكره الله تعالى عن الأنبياء والصالحين في معرض الثناء عليهم في **(قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ﴾) ويسابقون (﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾) والطاعات وعمل القربات،

(١) شفاء العليل ص ٢٢٦.

(٢) الفتاوى ٢٨/ ٣١.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.

(٤) مفتاح دار السعادة ٢/ ٣٠٠.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

(﴿وَيَدْعُونَنَا﴾) وحدنا، ويسألوننا الأمور المرغوب فيها، (﴿رَغَبًا﴾) فيما عندنا من الثواب، (﴿وَرَهَبًا ۖ﴾) منَّا وممَّا عندنا من العقاب، (﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾) خاضعين متذللين متضرعين، وذلك لكمال معرفتهم بربهم.

فدلت الآية على أن هذه الثلاثة الأنواع، الرغبة فيما عند الله، والرهبة من الله، والخشوع لله، عبادة من أجل أنواع العبادات، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك *.

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾.

الخشية: عبادة

الخشية بمعنى الخوف إلا أن الخشية أخص من الخوف، لأن الخشية مقرونة بمعرفة الله قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «خشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية»(١).

والخشية متضمنة للرجاء قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله»(٢).

دليل أن الخشية عبادة لله

والخشية عبادة عظيمة لا تصرف إلا لله، **(ودليل)** أن **(الخشية)** عبادة من العبادات **(قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾)** فليسوا أهلاً للخشية **(﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾)**؛ أمر الله بخشيته؛ لأن خشيته رأس كل خير، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب، انقطعت هذه الوُصل»(٣).

ثمرة الخشية

ومن خشي ربه رزقه الله حياة القلب وانتفع من المواعظ والعبر قال سبحانه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾، وآثار الخضوع لله بادية على من يخشاه قال تعالى: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، والهداية إنما هي وسيلة إلى الخشية، قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، وهي موجبة لمغفرة الله وفضله العميم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ

(١) التبيان ص ٨٨.

(٢) الفتاوى ٧/ ٢١.

(٣) عدة الصابرين ص ٤٨.

....

وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وموجبة لجنات النعيم قال عزَّ وجل: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾، وأخشى الناس لله أعرفهم به، والعالِم حقاً هو من خشي الله قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «كل من خشي الله، فهو عالم»[1]، وحسبك بالخشية علماً قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً»[2]، وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

العالِم حقاً

العزة في الخشية

ومن خشي ربه عاش بين الخلق عزيزاً، وفي حياته سعيداً. فاجعل ربك بين ناظريك، واخش الأمن من مكره وحلول عقوبته، وأكثر من الطاعات لتنال خشيته تعالى، وهو سبحانه أهل أن يخشى وقد أمر بخشيته وحده، ونهى عن خشية من سواه قال سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وخشية المخلوق من المخلوق ذلٌّ وخضوع لمن لا يستحق الخضوع، فلا تخشَ إلا ربك، فالخشية عبادة عظيمة من أجلِّ العبادات، وصرفها لغير الله شرك*.

(١) الفتاوى ٧/ ١٧.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٤٥٣٢) ٧/ ١٠٤.

....

الإنابة: عبادة

وتوجه القلب إلى الله بالإنابة والرجوع إليه عبادة جليلة يثاب عليها العبد.

والإنابة: هي الرجوع إلى الله، وأصلها محبة القلب وخضوعه وذله للمحبوب المراد، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الإنابة: هي عكوف القلب على الله عزَّ وجل، كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك: عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له، والمتابعة لرسوله ﷺ»(١).

الفرق بين الإنابة والتوبة

والإنابة بمعنى التوبة ولكنها أعلى من التوبة، لأن التوبة إقلاع وعزم على أن لا يعود وندم على ما مضى، فإن استمر على ما هو عليه من عباداته فهو تائب، فإذا أقبل على الطاعات بعد توبته كقراءة القرآن والصدقة فهذه إنابة إلى الله، فمن تاب من السرقة مثلاً كان تائباً، فإذا أقبل على الطاعات بعد التوبة كالاستغفار والذكر ونحوهما كان منيباً، فالإنابة تدل على التوبة، وتدل على الإقبال على الله بالعبادات.

والمصنف اقتصر على ذكر الإنابة ولم يذكر التوبة من أنواع العبادة، لأن صورة العبادة بالنسبة للإنابة أوضح من صورتها بالنسبة إلى التوبة، بسبب زيادة الإقبال على العبادة، ولأن الإنابة أعم من التوبة.

والمنيب إلى الله هو المسرع إلى مرضاته، العائد إلى الله في كل وقت، السبَّاق إلى محابِّه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إنابة أوليائه إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فالمنيب إلى الله المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه، لأن لفظ الإنابة فيه معنى الإسراع والرجوع والتقدم»(٢) *.

---

(١) الفوائد ص ٣٤١.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٣٤.

....

الإنابة دأب الأنبياء

والإنابة إلى الله دأب الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وقال نبينا محمد ﷺ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وأثنى الله على خليله إبراهيم عليه السلام لاتصافه بالإنابة إليه والرجوع إليه في كل أمر، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، والبشارة لأهل الإنابة قال جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، ولا يعتبر بالآيات، ولا يتعظ بالعبر إلا المنيب إلى ربه، قال عزَّ وجل: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «العبد إذا أناب إلى الله، أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدل بها على ما هي آيات له»(١). والإنابة إلى الله مانعة من عذاب الله قال عزَّ وجل: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، والجنة أعدت نزلاً للقلب الخاشع المنيب قال جلَّ وعلا: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، وأمر الله جميع الخلق بالإنابة إليه والرجوع إليه، قال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة، لأنه يتوكل في حصولها، فالتوكل وسيلة والإنابة غاية.

ثمرات الإنابة

والإنابة من أسباب سعادة العبد في الدارين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «العبد إنما خلق لعبادة ربه، فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربه وينيب إليه»(٢). ولكون الإنابة منزلة عالية عند الله فإن الشيطان

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٤٢.

(٢) الفتاوى ١٤/ ٣٢.

يسعى لصد العبد عنها، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه، والتقرب إليه والاتصال به»[1].

تفاوت العباد في الإنابة

والإنابة عبادة يتفاوت العباد فيها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه»[2].

والفطرة دالة على الإنابة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة إليه»[3].

(ودليل) أن **(الإنابة)** عبادة عظيمة أَمْر الله تعالى عباده بها في **(قوله تعالى**: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾) بقلوبكم (﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾) بجوارحكم، فهو ظاهر في أنها عبادة وأنه يحبها شرعاً وديناً، فصرفها لغير الله شرك *.

(١) الفتاوى ٧/ ٢٨١.

(٢) طريق الهجرتين ص٢٩٢.

(٣) الفتاوى ٢/ ٦.

ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾،

الاستعانة: عبادة

الاستعانة: طلب العون، وهي تجمع: الثقة بالله والاعتماد عليه، مع كمال الذل له، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والاستعانة بالله تتضمن ثلاثة أمور: كمال الذل له، مع الثقة به، والاعتماد عليه، ومن استعان بغير الله محققاً هذه المعاني الثلاثة فقد أشرك مع الله غيره»(١).

(ودليل) أن **(الاستعانة)** من أنواع العبادة **(قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾)** أي: نخصك وحدك بالعبادة (﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾) نفردك بالاستعانة دون خلقك، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي، فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة.

ومدار الدين على العبادة والاستعانة. والقيام بعبادة الله والاستعانة به، هما الوسيلة للسعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الدين أن لا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا به»(٢). والعبادة من مقتضيات ألوهيته، والاستعانة من مقتضيات ربوبيته، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته، من المحبة والخوف والرجاء والأمر والنهي، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية، من التوكل والتفويض والتسليم»(٣).

والاستعانة تكون على أمور المستقبل، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧٤.

(٢) الفتاوى ١١/ ٥٢٤.

(٣) الفتاوى ١/ ٨٩.

وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله».

«فإن الاستعانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل، فأما ما وقع فإنما فيه الصبر والتسليم والرضا»[١].

كيفية الوصول إليها

والاستعانة عبادة عظيمة ومما يعين عليها قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» يوجب الإعانة، ولهذا سنَّها النبي ﷺ إذا قال المؤذن: حي على الصلاة فيقول المجيب: «لا حول ولا قوة إلا بالله متفق عليه[٢]»[٣]، وقال أيضاً: «إن هذه الكلمة: ـ أي: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ـ كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً»[٤]. وأَجْمعُ الأدعية طلب العون على الطاعة، قال ابن القيم: «قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين»[٥].

وبالاستعانة بالله تستغني عن الاستعانة بالخلق، وكمال غنى العبد في تعلقه بربه، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً، وقد أمر الأنبياء أقوامهم بالاستعانة بالله وحده قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، **(و)** أمر النبي ﷺ بالاستعانة بالله فقال **(في الحديث)** الذي رواه الترمذي: **(«إذا استعنت فاستعن بالله»)**[٦]، قال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «بقدر ما يركن الشخص إلى غير الله تعالى

---

(١) الفتاوى ١٣/ ٣٢١.

(٢) الفتاوى ١٣/ ٣٢٢.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٨٨) ١/ ٢٢٢ من حديث معاوية رضي الله عنه، وصحيح مسلم رقم (٣٨٥) ١/ ٢٨٩ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) الفتاوى ١٠/ ٦٨٦.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٧٨.

(٦) سنن الترمذي رقم (٢٥١٦) ٢/ ٣٨٥ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

....

بطلبه، أو بقلبه، أو بأمله، فقد أعرض عن ربه إلى من لا يضره ولا ينفعه، وكذلك الخوف من غير الله»[1].

الاستعانة بالمخلوق

ولا بأس بالاستعانة بالمخلوق الحي على أمر قادر عليه، فإن كانت على بر وخير فهي إحسان، قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وإن كانت على إثم فهي حرام، قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

وأما الاستعانة بالأموات، أو بالأحياء الغائبين، أو بالأحياء الحاضرين على أمر لا يقدرون عليه، فهذا شرك.

والعبد ضعيف بنفسه لا غنى له عن عون الرب، ومن سعى في تحقيق مطلوبه وجب عليه أن يكون مستعيناً بالله متوكلاً عليه مفتقراً إليه في حصوله، ومن فضل الله على عباده أن من تعلق به منهم أعانه الله، فالاستعانة عبادة عظيمة عليها مدار الدين، على العبد تحقيقها وعدم التفريط فيها *.

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ١٢٢.

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، **و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

الاستعاذة: عبادة

الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام والتحرز، وحقيقتها: الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.

والاستعاذة بالله هي الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، واعتقاد كفايته، وتمام حمايته من كل شر.

وهي عبادة من العبادات التي أمر الله عباده بها كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. قال في فتح المجيد: «وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله»[1]، ولا عاصم في تفريج الكروب ورفع الخطوب سوى ربِّ العالمين، والحياة مليئة بالآفات والمكاره، ولكل مخلوق أعداء من الجن والإنس وعلى مقدمتهم إبليس ـ لعنه الله ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، وأخبر الله أن لكل نبي أعداءً من الجن والإنس قال سبحانه: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا**﴾، وكذلك أتباع الرسل يتعرضون للابتلاء.

ولا غنى لأي مخلوق من الاحتماء بجناب الله والاعتصام بحماه من شرور الإنس و الجن ومن مكاره الحياة وآفاتها، ومن طلب العوذ من الله فقد رام عبادة جليلة أمر الله بها في أكثر من موضع في كتابه.

دليل أن الاستعاذة عبادة

(ودليل) أن **(الاستعاذة)** من أنواع العبادة **(قوله تعالى:** ﴿قُلْ﴾) ـ يا أيها النبي متعوذاً، والخطاب أيضاً لجميع أمته ـ: (﴿أَعُوذُ﴾) أي: أَعْتَصِمُ وأَلتَجِيءُ (﴿بِرَبِّ﴾) وخالق (﴿ٱلْفَلَقِ﴾) وهو الصبح، **(و)** قوله: (﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ﴾) وخالق (﴿ٱلنَّاسِ﴾)، وقد قال النبي ﷺ عن المعوذتين لعقبة بن عامر رضي الله عنه:

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ١٨٨.

....

«ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس» رواه مسلم[1].

الاستعاذة أهم من النفس والطعام

ويجب على المسلم أن يداوم على الاستعاذة بهما في صباحه ومسائه، فهي سبب في تحصينه من الشرور والآفات يومه وليلته، وقد أوصى النبي ﷺ عقبة بن عامر رضي الله عنه أن يتعوذ بهما وقال له: «تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما» رواه أبو داود[2]، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين، أعظم من حاجته إلى النَّفس والطعام والشراب واللباس»[3].

والربُّ سبحانه متصف بالقوة والعزة، من اعتصم به لم يصله أذى أحد، وتخلف عنه الضرر ولو مع وجود أسبابه، قال عليه الصلاة والسلام: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء، حتى يرتحل من منزله ذلك» رواه مسلم[4]، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «هذا خبر صحيح وقول صادق، علمنا صدقه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر، عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته فلدغني عقرب بالمهدية[5] ليلاً، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات»[6].

والمخلوق ضعيف يتعرض للأذى، لا يهنأ في حياته إلا بالاعتصام واللوذ بالله، ويجب على العبد أن يعلم أن الضرر والنفع بيد الله، وأن من سعى للإضرار بك لا يتحقق له مناه ما لم يشأ الله ذلك، قال عليه الصلاة

(١) صحيح مسلم رقم (٨١٤) ١/٥٥٨.
(٢) سنن أبي داود رقم (١٤٦٣) ٢/٧٣.
(٣) بدائع الفوائد ٢/١٩٩.
(٤) رقم (٢٧٠٨) ٤/٢٠٨١ من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.
(٥) المهدية: مدينة عامرة ببلاد الأندلس.
(٦) فتح المجيد ص ١٩٠.

....

والسلام: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي(١)، وقد ذكر الله ما ضرره ظاهر متحقق في رأي العبد وهو السحر، ومع ذلك فقد يتخلف عنه الضرر قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

فالاستعاذة بالله عبادة من أجل العبادات، أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يستعيذ بفالق الإصباح من شر جميع المخلوقات، ومن شر الغاسق والساحر والحاسد، والقادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم، هو القادر أن يدفع عن المستعيذ ما يخافه ويخشاه.

الاستعاذة بالمخلوق

ولا بأس بالاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه؛ لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها فقطعت» رواه مسلم(٢)، قال في تيسير العزيز الحميد: «المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يستعاذ فيه إلا بالله»(٣).

أما الاستعاذة بالأموات، أو بالغائبين الأحياء، أو بالأحياء الحاضرين على أمر لا يقدرون عليه، فهذا شرك أكبر كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

فاجعل مسألتك واستعاذتك بالله وحده، فلا عاصم من المهالك سواه، ولا جالب للنفع غيره *.

---

(١) رقم (٢٥١٦) ٢/ ٣٨٥ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رقم (١٦٨٩) ٣/ ١٣١٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢١١.

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾.

الاستغاثة: عبادة

الاستغاثة: هي طلب الإغاثة والغوث، وهو طلب الإنقاذ من الضيق والشدة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الاستغاثة لا تكون إلا بعد الذعر»[1].

الفرق بين الاستغاثة والدعاء والاستعاذة

والفرق بين الدعاء والاستغاثة:

أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب.

وأما الدعاء فهو أعم، يكون من المكروب ومن غيره، فهي أخص أنواع الدعاء، فإن دعاء المكروب يقال له: استغاثة.

والفرق بين الاستغاثة والاستعاذة:

أن الاستعاذة: تطلب منه أن يعصمك وأن يمنعك وأن يحصنك.

وأما الاستغاثة: فهي أن تطلب منه أن يزيل ما حل بك من شدة.

والاستغاثة تتضمن: كمال الافتقار إلى الله، واعتقاد كفايته، وهي من أفضل الأعمال وأكملها، والمرء في هذه الحياة عرضة للكروب والكوارث، فمن استغاث بربه في كشف ملماته فقد أدى عبادة عظيمة فزع إليها الأنبياء والصالحون عند الشدائد ففرج الله كروبهم.

(ودليل) أن **(الاستغاثة)** عبادة **(قوله تعالى:** ﴿إِذۡ﴾) أي: اذكروا نعمة الله عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم فقمتم (﴿تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾) وتطلبون منه المدد والعون والنصر (﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾) وذلك يوم بدر حين نظر النبي ﷺ إلى كثرة المشركين وجعل يهتف بربه ويناشده، ويطلب منه الغوث ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فأمده الله بالنصر على عدوه، فقتلوا وأسروا وظهر الإسلام وسمي يوم الفرقان.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٦٠.

....

استغاثة شركية

فدلت الآية على أن الاستغاثة عبادة من أجل العبادات، وأن صرفها لغير الله ـ كأن يستغاث بالأصنام، أو الأموات، أو الغائبين، أو نحوهم ـ شرك به تعالى، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن أنواعه ـ أي: الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله»[(١)]، وهذه الاستغاثة لا نفع منها سوى الحسرة والندامة، وصاحبها يجري خلف سراب لن يتحقق له مُبتغاه، ففي الدنيا خاسر وفي الآخرة هالك، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «يقول أبو يزيد ـ رحمه الله ـ: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق»[(٢)].

فمن دعا غير الله والتجأ إليه من الأموات، أو الأحياء الغائبين فلن يتحقق له مطلوبه ولو عكف على استغاثته سنين، قال سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

استغاثة جائزة

والاستغاثة بالأحياء الحاضرين القادرين على الإغاثة جائزة فيما يقدرون عليه، قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أما إنزال وطلب الحوائج منهم وهم غير قادرين، أو من الأموات، أو الغائبين، فهي شرك بالله.

فإذا حلَّت بك الخطوب، واشتدت بك الكروب، فاستغث بعلام الغيوب، فبيده مقاليد السموات والأرض قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ *.

---

(١) مدارج السالكين ١/٣٤٦.

(٢) الفتاوى ١٤/٢٩.

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

الذبح: عبادة

الذبح لله من أجلِّ الطاعات، ومن أفضل العبادات المالية، وأمارة على صدق الإيمان وسمو النفس لله، لأن الحيوان المذبوح محبوب لأربابه، فإذا بذله لله متقرباً به إلى الله، وسمحت نفسه بإذاقة الحيوان الموت، صار أفضل من مطلق العبادات المالية، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وما يجتمع في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن به أمر عجيب»[1] من ظهور حلاوة الإيمان على القلب.

(**ودليل**) أن (**الذبح**) عبادة عظيمة لله (**قوله تعالى:** ﴿قُلۡ إِنَّ﴾) تعبدي بـ (﴿صَلَاتِي﴾) أي: صلواتي (﴿وَنُسُكِي﴾) بالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله، وخص هاتين العبادتين، لشرفهما وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله وإخلاص الدين له، فالصلاة من أجل العبادات البدنية، والنحر من أجل العبادات المالية، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله وأقواله.

(﴿وَمَحۡيَايَ﴾) أي: ما آتيه في حياتي، (﴿وَمَمَاتِي﴾) أي: ما أدخره عند الله بعد مماتي.

كل ذلك (﴿لِلَّهِ﴾) وحده (﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾) ومعبودهم (﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾) في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير.

(﴿وَبِذَٰلِكَ﴾) أي: بإخلاص تلك الأعمال لله (﴿أُمِرۡتُ﴾) أمراً حتماً يجب عليَّ امتثاله، (﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾) من هذه الأمة، فإن من سخر جسده بالتعبد لله وماله بذبح القرابين لربه فهو المسلم حقاً، وقد أمر الله رسوله ﷺ بإخلاص تلك العبادتين له لفضلهما فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ أي: صلِّ واذبح لله لا

---

(١) الفتاوى ١٦/ ٥٣٢.

ومن السنة: «لعن الله من ذبح لغير الله».

لغيره، فكما أن الصلاة لا يجوز أن تؤدى لغير الله، فكذلك الذبح لا يجوز إلا لله وحده.

صور من الذبح الشركي

ومن هانت عليه نفسه، فصرف عبادته لغير الله، بأن ذبح للأصنام، أو للقبور، تعظيماً لها، أو خوفاً منها، أو التماساً لشفاعة أربابها، أو في طريق قدوم سلطان، أو لنحو ذلك، فقد وقع في الشرك، ولو كان المذبوح بعيراً، أو بقرة، أو شاة، أو دجاجة، أو أصغر من ذلك، **(و)** قد جاء الوعيد الشديد فيمن فعل ذلك **(من السنة)** في قوله ﷺ: «**(لعن الله)**، واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله **(مَنْ ذبح)** وأراق الدماء **(لغير الله)**» رواه مسلم[1].

فمن استحوذ عليه الشيطان وقدَّم القرابين لغير خالقه، فقد كفر النعمة، وهضم جناب ربوبية الله، وتنقص ألوهيته، وعظَّم غير خالقه، وتعرَّض لوعيد الله بلعنه وطرده، لجرم ما ارتكبه من إراقة الدماء بالذبح لمخلوق لا يستحق أن يصرف له أي شيء من أنواع العبادة *.

---

(١) رقم (١٩٧٨) ٣/ ١٥٦٧ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظ: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير المنار».

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾.

النذر: عبادة

النذر: إيجاب المكلف على نفسه ما ليس واجباً عليه بأصل الشرع، وهو عبادة يجب إخلاصها لله.

(ودليل) أن **(النذر)** عبادة لا يصرف إلا لله **(قوله تعالى)** في معرض الثناء على من وفَّى بالنذر: (﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾) بما ألزموا به أنفسهم من النذور، وإذا كانوا يوفون بما هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم، ففعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى، وهو سبحانه لا يثني إلا على فاعل عبادة.

(﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾) عسيراً (﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾) أي: ما فيه من الأهوال (﴿مُسْتَطِيرًا﴾) ومنتشراً وقاسياً على الناس إلا من رحم الله، والمسلم قلبه معلق بالله، لا يصرف أي نوع من العبادة لغير الله، بل يؤدي جميع العبادات على وجهها، وإن أوجب على نفسه شيئاً بالنذر فيما لم يوجب الشارع الحكيم عليه لم ينذر إلا لله، لقول النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» رواه البخاري[(١)].

النذر أعظم من الحلف

ومن صرف النذر لغير الله، فقد صرف عبادة من العبادات لغير الله، ووقع في الشرك وهو أعظم من الحلف بغير الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فمن نذر لغير الله فهو مشرك، أعظم من شرك الحلف بغير الله»[(٢)].

ومن نذر لمخلوق لم ينعقد نذره ويحرم عليه الوفاء به قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «النذر للقبور، أو لأحد من أهل القبور ـ كالنذر لإبراهيم الخليل، أو للشيخ فلان، أو فلان، أو لبعض أهل البيت، أو غيرهم ـ

---

(١) رقم (٦٣١٨) ٦/ ٢٤٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) الفتاوى ٣٣/ ١٢٣.

....

نذر معصية لا يجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين بل ولا يجوز الوفاء به، فإنه قد ثبت في الصحيح[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» رواه البخاري» ا.هـ[2].

وكيف تصرف العبادة لمخلوق لا يملك نفعاً ولا يدفع ضراً ؟ هذا من أعظم البهتان!! والنذر لا يصرف إلا لله، وإن نذر لله في طاعة وجب الوفاء به، وعقد النذر لله ابتداءً مكروه، وأخبر النبي ﷺ أنه «لا يقدم شيئاً، ولا يؤخره، وأنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل» متفق عليه[3]، ولكن إن نذر لا يحل له أن ينذر إلا لله فحسب، لأن النذر عبادة *.

(١) أي صحيح البخاري رقم (٦٣١٨) ٦/ ٢٤٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها كما سبق.

(٢) الفتاوى ٢٧/ ١٤٧.

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٢٣٤) ٦/ ٢٤٣٧، وصحيح مسلم رقم (١٦٣٩) ٣/ ١٢٦١ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

معرفة دين الإسلام بالأدلة

يجب على الإنسان معرفة ثلاثة أصول، الأصل الأول: معرفة العبد ربه، وقد بين المؤلف ـ رحمه الله ـ فيه: أن ربنا هو الله وهو معبودنا وحده، وعرفناه بآياته ومخلوقاته، وذكر بعض أنواع العبادة وأنها لا تصرف إلا لله، وأن صرف أي شيء منها لغيره شرك به تعالى.

ويذكر المصنف ـ رحمه الله ـ هنا **(الأصل الثاني)** من أصول الدين التي ينبني عليها، وهو **(معرفة دين الإسلام)** العظيم الذي خلقنا الله لندين به، وتعبدنا بالقيام به.

ويجب معرفة هذا الدين مع أصوله التي يبنى عليها **(بالأدلة)** من الكتاب والسنة، ليكون الإنسان على نورٍ وبرهانٍ وبصيرةٍ من دينه، فإن لم يكن على بصيرة من دينه، فإنه يخشى عليه في حياته وبعد مماته عند سؤال الملكين إذا سألاه في القبر أن يحصل له الشك، فيجيب بالجواب السيئ فيقول: «هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[(١)]، بخلاف من يعرف أدلة دينه من الكتاب و السنة، وكان على القول الثابت في الدنيا عاملاً بالدين، فإنه حري به أن يقول عند سؤال الملكين: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ[(٢)]، فإن من أسباب الثبات عند السؤال معرفة الدين بالحجج من

(١) كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وفيه: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري فينادي منادٍ من السماء أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة». رواه أحمد رقم (١٨٥٥٧) ٤/ ٢٨٧.

(٢) كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وفيه: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام =

وهو: الاستسلام لله بالتوحيد،

الكتاب والسُّنَّة، والعمل به.

تعريف الإسلام

(و) دين الإسلام الذي ندين الله به **(هو: الاستسلام لله)** بالذل والخضوع له تعالى، بإفراده بالربوبية والخلق والتدبير، وإفراده تعالى **(بالتوحيد)** بجميع أنواع العبادة.

وحقيقة دين الإسلام: هو أن يسلم العبد أفعاله لله لا لغيره، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «حقيقة الإسلام: أن يستسلم لله لا لغيره، وهو معنى لا إله إلا الله»(١).

والمسلم سمِّي مسلماً، لخضوع جوارحه لطاعة ربه، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الإسلام هو: الاستسلام، وهو يتضمن الخضوع لله وحده، والانقياد له، والعبودية لله وحده»(٢).

= حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون يعنى بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي» رواه أحمد رقم (١٨٥٥٧) ٤/ ٢٨٧.

(١) الفتاوى ٤/ ٢٤٥.

(٢) الفتاوى ٧/ ٢٤٧.

والانقياد له بالطاعة،

فالمستسلم لله ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر، ومن استكبر عن الحق ابتلاه الله باتباع الباطل، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل، فيكون المستكبر مشركاً كما ذكر الله»(١).

رأس الإسلام وضداه

والإسلام له رأس وهو الشهادتان، وله ضدان: الكبر والشرك، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الإسلام الذي هو دين الله، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين، فيستسلم لله وحده لا شريك له، ويكون سالماً له بحيث يكون متألهاً له غير متأله لما سواه، كما بينه أفضل الكلام ورأس الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وله ضدان: الكبر والشرك، ولهذا روي أن نوحاً عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع، فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده، فلا يكون مستسلماً له، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركاً به، فلا يكون سالماً له، بل يكون له فيه شرك، ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص»(٢).

الطاعة من الإسلام

(و) مع ذل العبد وخضوعه لله يجب عليه **(الانقياد)** والإذعان **(له)** جلَّ وعلا **(بالطاعة)** بفعل المأمورات وترك المنهيات امتثالاً لأمر الله قال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وقوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم، كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» متفق عليه(٣).

---

(١) الفتاوى ٧/ ٦٢٩.

(٢) الفتاوى ٧/ ٦٢٣.

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٨٥٨) ٦/ ٢٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٣٧) ٢/ ٩٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

وأعلى المراتب كمال الانقياد، ومن لم ينقد لهذا الدين أذله الله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «من تواضع لله رفعه، فكذلك من تكبر على الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغره وحقره»[1].

والكبر من أعظم أسباب منع الانقياد لهذا الدين، قال ابن القيم رحمه الله ـ وهو يذكر موانع الانقياد ـ: «السبب الثالث: قيام مانع، وهو إما حسد أو كبر، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر، وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله، وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته، ومن جرى مجراهم»[2] *.

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٣٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٩٩.

والبراءة من الشرك وأهله،

لا إسلام بلا براء

ومما يجب على المسلم اعتقاده وفهمه والعمل به، أن الإسلام هو إفراد الله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، **(والبراءة)** أي: أن يتبرأ المسلم **(من)** أعمال وأقوال **(الشرك)** ويعتقد بطلانها، **(و)** يتبرأ من **(أهله)** في الاعتقاد والعمل والمسكن، بل من كل خصلة من خصالهم، ومن كل نسبة من النسب إليهم، ويكون معادياً لهم غير متشبهٍ بهم في قولٍ أو فعلٍ.

فدين الإسلام يقوم على ثلاثة أسسٍ يجب على المسلم أن يأتي بها مجتمعة:

الأسس التي يقوم عليها الإسلام

١ ـ الاستسلام لله بالتوحيد.

٢ ـ الانقياد له بالطاعة.

٣ ـ البراءة من الشرك و أهله.

والبراءة من الشرك وأهله أحد ركني التوحيد الذي ينبني عليه، إذ التوحيد قائم على ركنين لا يحصل التوحيد إلا بهما، ولا يكون العبد موحداً إلا باجتماعهما معاً، وهما النفي والإثبات، ومن فقد أحدهما فقد التوحيد، فتنفي العبودية عن غير الله، وتثبت العبودية لله وحده، قال سبحانه مخبراً عن إبراهيم عليه السلام آمراً بالتأسي به: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فهذا هو الركن الأول وهو البراءة من الشرك وأهله، وقوله تعالى بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذا هو الإثبات وهو الركن الثاني، وكقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذا هو البراء أي: النفي، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هذا هو الإثبات.

فكلمة التوحيد معناها: لا معبود بحق إلا الله، فمن كان يصلي ويصوم ويحج ويتصدق، ولكن يقر الشرك ويصحح معتقد المشركين فليس بمسلم، لأنه لم يتبرأ من الشرك وأهله، فيجب الجمع بين البراءة من المشركين، وبين

....

الإيمان بالله بإفراد العبودية له وحده، فالذي يصلي وهو واقع في الشرك لا تنفعه صلاته، لأنه لم يتطهر من الشرك.

وجوب محبة المسلم لدينه

ويجب على العبد مع معرفته لهذا الدين، محبته له، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «القلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقاً به، وديناً له، لكن يعرض لها ما يفسدها، ومعرفة الحق تقتضي محبته، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه، لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل، لكن قد يعرض لها ما يفسدها، إما من الشبهات التي تصدها عن التصديق بالحق، وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه»[1].

ويجب على كل مسلم أن يعتز بدينه، فدينه هو الحق وما سواه من الأديان فهو باطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن ذلك للناس في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. فمن هداه الله لهذا الدين فليفرح بنعمة الله عليه بالهداية، وليستمسك به، فقوة العبد وعزته بالدين، وليدعو الناس إليه فهو طريق العباد إلى النعيم قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ *.

(١) الفتاوى ٧/٥٢٨.

مراتب الدين

(وهو) أي: الدين على **(ثلاث مراتب)** ـ أي: منازل ـ: **(الإسلام)** مرتبة، **(والإيمان)** مرتبة، **(والإحسان)** مرتبة، وأهل دين الإسلام لا يخلو حالهم من إحدى هذه المراتب، وقد ينتقل المسلم من مرتبةٍ إلى مرتبةٍ أعلى منها، أو أدنى منها على قدر طاعته لله.

العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان

وأول تلك المراتب الإسلام، وأوسطها الإيمان، وأعلاها الإحسان، ومن وصل إلى العليا فقد وصل إلى ما قبلها، فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأما المسلم فلا يلزم أن يكون مؤمناً، قال أبو سليمان الخطابي ـ رحمه الله ـ: «فأكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة»[1].

فالمرتبة الأولى: هي مرتبة الإسلام وهي أوسعها، وهي أقل مراتب الدين، وهي المرتبة الأولى التي يدخل فيها الكافر أول ما يتكلم بالإسلام ويذعن له وينقاد قال سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾، ولا يُخْرِج العبد عن مرتبة الإسلام إلا الكفر بالله والشرك المخرج من الملة.

والمرتبة الثانية: هي مرتبة الإيمان، وهي التي تلي مرتبة الإسلام في العلو، وهي أضيق من مرتبة الإسلام.

وكل خصلة من خصال الإيمان داخلة في الإسلام، قال ابن أبي شيبة ـ رحمه الله ـ: «لا يكون إسلام إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بإسلام»[2].

فما كان من الأعمال الباطنة، فوصف الإيمان عليه أغلب من وصف الإسلام، وما كان من الأعمال الدينية الظاهرة، كالشهادتين والصلاة وأنواع العبادات التي تظهر ويطلع عليها الناس فوصف الإسلام عليها أغلب من

(١) شرح النووي على مسلم ١/ ١٤٤.
(٢) تعظيم قدر الصلاة للمروزي رقم (٥٨٣) ٢/ ٥٢٨.

....

وصف الإيمان. فدائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان، كما أن دائرة الإيمان أوسع من دائرة الإحسان.

والمرتبة الثالثة: هي مرتبة الإحسان وهي أعلى من مرتبة الإيمان، وهي أضيق المراتب، وأهلها أقل من أهل مرتبتي الإيمان والإسلام، وهي مرتبة عالية عزيزة لا يرتقي إليها إلا عباد الله المحسنون.

وهذا التفصيل لمراتب الدين أخبر به النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور[١] وجاء به أيضاً القرآن الكريم، فجعل الأمة على هذه الأوصاف الثلاث فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو ظالم لنفسه، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه، أو يعبد ربه كأن ربه يراه.

والناس يتفاضلون في التوحيد تفاضلاً عظيماً، وهم فيه على درجات بعضها أعلى من بعض، فمنهم من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ومنهم من يدخل النار وهم العصاة الذين لم يشأ الله أن يغفر لهم وعاملهم بعدله، فيمكثون فيها على قدر ذنوبهم ثم يخرجون منها، لأجل ما في قلوبهم من التوحيد والإيمان *.

(١) سيأتي في ص ١٥٩.

وكل مرتبة لها أركان، فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،

أركان المرتبة الأولى

(وكل مرتبة) من مراتب الدين الثلاث **(لها أركان)** لا تقوم إلا عليها، ومراتب الدين لا تتم إلا بأركانها.

(فأركان الإسلام خمسة) أركان لا يستقيم إلا بها، ولا يثبت بدونها، وهي ما ذكره النبي ﷺ في قوله: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» متفق عليه[(١)]. قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «والمراد من هذا الحديث، أن الإسلام مبني على هذه الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان، ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان، وهو قائم لا ينقض بنقص ذلك، بخلاف نقص هذه الدعائم، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعاً بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين»[(٢)].

معنى الشهادة

وقدم الأهم فالأهم من أركان الإسلام، فبدأ بقطبها وهي **(شهادة)** ومعنى الشهادة: الاعتقاد الجازم، وأطلق على الاعتقاد لفظ الشهادة، لبيان أنه لا بد من الاعتقاد الجازم، حتى كأنك تشاهد الذي تعتقده، والذي تعتقده وتشهد به هو **(أن لا إله)** معبود بحق **(إلا الله)**، وتعتقد وتشهد **(أن محمداً رسول الله)** ﷺ أرسله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً.

وهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه، فإن أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر، هو الإيمان بالوحدانية والرسالة، وهو شهادة

---

(١) صحيح البخاري رقم (٨) ١/ ١١ - ١٢، ورقم (٤٢٤٣) ٤/ ١٦٤١، وصحيح مسلم رقم (١٦) ١/ ٤٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٣.

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أصل عقد التوحيد وإثباته، هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ»[١]، وهي مفتاح الجنة قال النبي ﷺ: «مفتاح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله»[٢]. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فإن الشهادة أصل المفتاح، والصلاة وبقية الأركان أسنانه التي لا يحصل الفتح إلا بها، إذ دخول الجنة موقوف على المفتاح وأسنانه»[٣]، قيل لوهب بن منبه ـ رحمه الله ـ: «أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك»[٤].

العلاقة بين الشهادتين

وجعلت الشهادتان ركناً واحداً ولم تجعل شهادة أن لا إله إلا الله ركناً، وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ركناً ثانياً، لأن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال وقبولها، إذ لا يقبل العمل ولا يكون صحيحاً إلا بأمرين:

١ ـ الإخلاص لله.

٢ ـ المتابعة للرسول ﷺ.

فإذا وجد الإخلاص تحققت شهادة أن لا إله إلا الله، وإذا وجدت المتابعة تحققت شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ، ولأن الرسول مبلغ عن الله، فالشهادة له بالرسالة والعبودية من تمام شهادة أن لا إله إلا الله، فالثانية تكملة للأولى، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ودين الإسلام مبني على أصلين، وهما: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ»[٥].

(١) شفاء العليل ص ٢٨٨.
(٢) رواه البزار من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه رقم (٢٦٦٠) ٧/ ١٠٣.
(٣) الصلاة وحكم تاركها ص٦٦.
(٤) رواه البخاري تعليقاً ١/ ٤١٧.
(٥) الفتاوى ١/ ٣١٠.

وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

(و) الركن الثاني من أركان الإسلام: **(إقام الصلاة)** أي: أداؤها في وقتها تامة بشروطها وأركانها وواجباتها.

(و) الركن الثالث: **(إيتاء الزكاة)** أي: أداء ما افترض الله على العبد من الزكاة.

(و) الركن الرابع: **(صوم)** شهر **(رمضان)** بالإمساك عن سائر المفطرات، من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، ممن يجب عليه الصيام.

(و) الركن الخامس: **(حج بيت الله الحرام)** أي: قصد بيت الله الحرام لأداء شعيرة الحج *.

فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ أركان الإسلام، شرع في ذكر دليل كلِّ ركنٍ فقال:

دليل شهادة أن لا إله إلا الله

(**فدليل الشهادة**) أي: شهادة أن لا إله إلا الله (**قوله تعالى**: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾)، وشهادته سبحانه هي أعظم شهادة في الوجود قال سبحانه: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ وشهد سبحانه على أجلِّ مشهود عليه، وهو ما شهد به تعالى: (﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾) يستحق العبادة (﴿إِلَّا هُوَ﴾) سبحانه.

(﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾) شهدوا بأنه لا إله إلا هو، كما شهد الله لنفسه المقدسة بذلك.

(﴿وَأُو۟لُوا۟﴾) أي: أصحاب (﴿ٱلْعِلْمِ﴾) شهدوا بذلك أيضاً، فجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وهذا فيه أعظم حاثٍّ على طلب العلم، فإن الله ذكر شهادته وشهادة الملائكة وشهادة أهل العلم، ففي هذه الشهادة رفعة لأهل العلم، حيث شهدوا على ما شهد به ربّ العالمين، وأيُّ ثناءٍ أشرف من هذا الثناء عليهم وتعديلهم، وجَعْلُهم حجة على من أنكرها، دال على فضل العلم، والمراد به العلم الشرعي، الذي هو نور القلوب وقوتها، وغيره علم نسبي إضافي، إما إلى أمور دنيوية، أو علوم حسابية وصناعية، أو غير ذلك، وأهله ليسوا من أهل العلم الذين ذكر الله شهادتهم، فلا يطلق هذا العلم إلا على العلم الشرعي الديني.

(﴿قَآئِمًۢا﴾) منصوب على الحال (﴿بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾): بالعدل، أي: قائماً بالعدل في جميع الأحوال.

(﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾) تأكيد لما سبق، (﴿ٱلْعَزِيزُ﴾) الذي لا يرام جنابه

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، ومعناها لا معبود بحق إلا الله،

عظمةً وكبرياءً، (﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾) في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

معنى أن لا إله إلا الله

(ومعناها) أي: ومعنى كلمة التوحيد، لا إله إلا الله **(لا معبود)** يستحق العبادة **(بحق)**، ويجب أن يؤتى في بيان معناها بهذا القيد وهو كلمة «بحق»، لأن المعبودات من دون الله كثيرة ولكنها معبودات باطلة، كعبادة أهل القبور والأشجار والأصنام، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ فلا أحد منهم يستحق العبادة، بل عبادتهم باطلة، ولا يستحق العبادة **(إلا الله)** وحده.

فالله هو المعبود بحق، وكل مألوه سوى الله فإلهيته أبطل الباطل، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، نفي الإلهية عن غير الله، وإثباتها لله وحده.

وليس معناها لا موجود إلا الله، أو لا يخلق ولا يرزق إلا الله، فإن هذه المعاني لإثبات توحيد الربوبية ولا تثبت وحدانية الله الذي هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب في تقريره وإيضاحه.

المشركون مقرون بتوحيد الربوبية

وتوحيد الربوبية قد أقر به المشركون، كأبي جهل وأضرابه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: أنه الذي يفعل ذلك، ولم ينازعوا فيه، ولا امتنعوا من الإقرار به، بل احتج تعالى عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية فقال: ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: الشرك به في عبادته، فإنهم يعرفون معناها وأنها دلت على إفراد الله بالعبادة، ولهذا أنكروا أن يكون الله هو المعبود وحده، لأنهم عرفوا مدلولها، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب، وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل، هو إفراد الربِّ بالتأله، الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له، مع كمال المحبة والإنابة، وبذل الجهد في طاعته

....

ومرضاته، وإيثار محابه ومراده الديني على محبة العبد ومراده، فهذا أصل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإليه دعوا الأمم، وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو الذي أمر به رسله عليهم الصلاة والسلام، وأنزل به كتبه، ودعا إليه عباده، وخلق الله الجنة والنار دار الثواب والعقاب لأجله، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «والإله هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبةً له، وإجلالاً ومحبةً وخوفاً، ورجاءً وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عزَّ وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول لا إله إلا الله، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك»[1] *.

(١) كلمة الإخلاص ص ٢٣.

(لا إله) نافياً جميع ما يعبد من دون الله (إلا الله) مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه.

ركنا كلمة التوحيد

وكلمة التوحيد لا إله إلا الله، تشتمل على أمرين هما ركناها: النفي والإثبات، فـ **(لا إله)** معناها **(نافياً)** العبد **(جميع ما يعبد من دون الله)** من القبور والأشجار والأحجار وغيرها، فالموحد يعتقد ويقول: أنا لا أعبد أيَّ معبودٍ كان إلا الله فهو الذي أعبده وحده.

ومعنى **(إلا الله)** أي: **(مثبتاً العبادة لله وحده)** فلا أعبد أحداً غيره، وهو سبحانه **(لا شريك له في عبادته)** وألوهيته **(كما أنه)** جلَّ وعلا **(لا شريك له في ملكه)** وربوبيته، أي: فكما أنه سبحانه المتفرد في ملك هذا الكون لا شريك له فيه، فواجب أن يفرد في العبادة، فإن من أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الذي ليس شريكاً لله في الملك، شريكاً لله في العبادة ـ تعالى الله وتقدس ـ، ولهذا يحتج تعالى على من أنكر ألوهيته بما أقر به من ربوبيته.

فإن المشرك إذا أثبت الربوبية لله عزَّ وجل، لزمه من هذا، أن يثبت له الألوهية، فكيف نثبت بأنه هو المتفرد في الملك، ولا نثبت له أنه المتفرد في الوحدانية ونصرف العبادة إلى غيره!.

فتوحيد الربوبية هو الدالُّ على توحيد الألوهية ومستلزم له، ولهذا قال: «كما أنه لا شريك له في ملكه».

فلا إله إلا الله اشتملت على أمرين: هما ركناها: النفي «لا إله»، والإثبات «إلا الله».

والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات المحض ليس بتوحيد، فلا بد من الجمع بينهما.

شروط كلمة التوحيد

ولكلمة التوحيد ثمانية شروط، يجب الإتيان بها مجتمعة مع النطق بها، ومن أخل بشيء منها فقد أخل بدينه، وهذه الشروط هي:

....

١ ـ العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً، المنافي للجهل بمعانيها ومقتضياتها، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بلا إله إلا الله ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما نطقت به ألسنتهم، وقال عليه الصلاة والسلام: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه مسلم(١).

٢ ـ اليقين بما دلت عليه، المنافي للشك بما تدل عليه، بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك؟! قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾، فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله، كونهم لم يرتابوا، وقال النبي ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة» رواه مسلم(٢)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة» رواه مسلم(٣).

٣ ـ القبول لمدلولات ومقتضيات هذه الكلمة بقلبه ولسانه، المنافي للرد، وقد قص الله علينا انتقامه ممن ردها وأباها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ فكان سبب عذابهم، هو استكبارهم عن قبول تلك الكلمة.

(١) رقم (٢٦) ١/ ٥٥ من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) رقم (٢٦) ١/ ٥٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رقم (٣١) ١/ ٥٩ - ٦٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

---

٤ ـ الانقياد لمعانيها ومقتضياتها من الأوامر والنواهي، المنافي للترك لما دلت عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ينقاد ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ موحد ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم، حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه ابن أبي عاصم في السنة[١]. وهذا هو تمام الانقياد وغايته *.

---

(١) رقم (١٥) ١/ ١٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

....

٥ ـ الإخلاص في الإيمان بها وما تدل عليه، المنافي للشرك، كأحوال المرائين وغيرهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾، وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، ويقول النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه أو نفسه» رواه البخاري[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» متفق عليه[٢].

٦ ـ الصدق في اعتقادها في الباطن، المنافي للكذب بما اعتقده فيها، كحال المنافقين الذين يكذبون في اعتقادهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقال سبحانه فيمن أخل بهذا الشرط: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار» متفق عليه[٣]. فاشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار، أن يقولها صدقاً من قلبه، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة القلب.

٧ ـ المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، المنافية لضدها قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾، وعلامة

(١) البخاري رقم (٩٩) ١/ ٤٩.
(٢) البخاري رقم (٤١٥) ١/ ١٦٤، ومسلم رقم (٦٥٨) ١/ ٤٥٥.
(٣) البخاري رقم (١٢٨) ١/ ٥٩، ومسلم رقم (٣٢) ١/ ٦١.

....

حب العبد ربه، تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه ابن أبي عاصم في السنة[١].

٨ ـ الكفر بما سوى الله من المعبودات، والبراءة من الشرك وأهله قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾، وقد جمعت هذه الشروط في قولهم:

علم يقين إخلاص وصدقك مع   محبة وانقياد والقبول لها

وزيد الشرط الثامن في قولهم:

وزيد ثامنها الكفران منك بما   سوى الإله من الأشياء قد ألها[٢]

ولا يشترط حفظها وعدها، وإنما معرفتها والإتيان بمقتضاها، قال حافظ الحكمي ـ رحمه الله ـ: «معنى استكمالها: اجتماعها في العبد والتزامه إياها، بدون مناقضة منه لشيء منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعددها لم يحسن ذلك؟ وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها؟ والتوفيق بيد الله»[٣].

ومن قال لا إله إلا الله وعرف معناها، ولكنه ارتكب شيئاً من نواقض الإسلام كالشرك أو تولي المشركين أو السحر أو غير ذلك من النواقض فإنه يخرج من الدين ولو كان يقول لا إله إلا الله، إذ لا بد من العمل بمقتضاها وبما دلت عليه والبعد عن نواقضها، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(١) رقم (١٥) ١/ ١٢ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) الدروس المهمة لابن باز رحمه الله ص ١.

(٣) معارج القبول ١/ ٣٧٧.

....

ـ رحمه الله ـ: «العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة»[1] *.

(١) القواعد الأربع ص ١.

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾،

تفسير شهادة أن لا إله إلا الله

(وتفسيرها) أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله **(الذي يوضحها)** ويبينها بياناً تاماً، ما ذكره الله في كتابه في **(قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ﴾) إمام الحنفاء: (﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾) آزر (﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾) الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم، قال لهم: (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾) أي: بريء ومبغض ومجتنب ومعادي لكم يا أهل الشرك، وكذلك بريء (﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾) من دون الله من الآلهة، وهذا فيه معنى «لا إله».

وقوله: (﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) أي: ابتدأ خلقي فإني أعبده، وفيه معنى «إلا الله» فاستثنى من المعبودين ربه.

(﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾) يرشدني لدينه القويم، وصراطه المستقيم، بالهداية للعلم والعمل بالحق، كما فطرني ودبرني بما يصلح لديني ودنياي. وقد أمرنا الله أن نتأسى به في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

(﴿وَجَعَلَهَا﴾) أي: وجعل الخليل إبراهيم عليه السلام، كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وما تضمنته من إخلاص جميع أنواع العبادة لله وحده، والتبرؤ من عبادة كل ما سوى الله (﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾) ونسله وذريته (﴿لَعَلَّهُمْ﴾) إليها (﴿يَرْجِعُونَ﴾) فيقتدون بمن هداه الله من ذريته إليها. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته»(١).

فتبين أن معنى كلمة لا إله إلا الله، هي البراءة من عبادة كل ما سوى

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٨٤.

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا

الله، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله وحده، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فإن الله أمر العباد كلهم، أن يعبدوه مخلصين له الدين، وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، فلا يقبل من أحد ديناً غيره قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»(١).

من تلفظ بالشهادة فقط لا يدخل الجنة

ولا إله إلا الله تتضمن: النفي والإثبات، ومن اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فقد أخطأ، فإن لكلمة التوحيد نواقض تخرج المرء عن الدين ولو كان يقول لا إله إلا الله ويعلم معناها.

وقد بيّن تعالى معنى لا إله إلا الله في آيات كثيرة منها قوله جلَّ وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقوله عزَّ وجل: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

(و) منها أيضاً **(قوله)** تعالى: (﴿قُلْ﴾) يا أيها الرسول: (﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾) من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم من المشركين.

(﴿تَعَالَوْا۟﴾) أقبلوا وهلموا (﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾) واحدة لا غير (﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾) أي: عدل وإنصاف لا يختلف فيها رسول ولا كتاب، نستوي نحن وأنتم في فرضيتها ووجوبها علينا وعليكم، وهي التي يدعو الرسل أقوامهم إليها وهي:

(﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾) ولا نوحد ولا نفرد العبادة لأحدٍ (﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾) وحده جلَّ وعلا، (﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾) لا وثناً ولا صنماً ولا صليباً ولا غيرها، بل

---

(١) الفتاوى ١/ ١٨٨.

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

وقوله: (﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾) أي: لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله كما فعلت اليهود والنصارى.

(﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾) وأدبروا وأعرضوا عن الإجابة إلى إفراد الله بالعبادة (﴿فَقُولُواْ﴾) يا أمة محمد ﷺ: (﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾) مخلصون لله بالتوحيد، ثابتون على الإسلام الذي شرعه الله لنا ولو خالفتمونا، وصرحوا لهم أنكم مسلمون وأنهم كفار، وأنكم براء منهم وهم براء منكم، وهذا دال على أنه لا بد أن يبين ذلك للكفار، حتى يتفهموا ويتحققوا أنهم ليسوا على دين، وأن دين الإسلام خلاف دينهم الذي هم عليه. وأن دينهم خلاف دين الإسلام.

وهذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكاتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ بها في الركعة الثانية من سنة الفجر، لاشتمالها على الدعوة إلى دينٍ واحدٍ، فقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام، وحوَت توحيد الإلهية الذي هو عبادة الله وحده، وأن يعتقدوا أن البشر وجميع الخلق لا يستحق أحد منهم شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية، فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا، وإلا فهم في ضلالهم يعمهون *.

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾،

دليل شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ

(**ودليل شهادة أن محمداً رسول الله**) من القرآن (**قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾) أي: من جنسكم، تعرفون نسبه وصدقه، ليس من الملائكة ولا من الجن، بل بشر تتمكنون من مجالسته ومؤاكلته والحديث معه، وقد نال أجل الصفات فيكم، من الأمانة والصدق والكرم وحسن الخلق، ومن كان كذلك فإن النعمة بإرساله إلى العباد تكون أكبر وأعظم.

(﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾) أي: يشق عليه كلّ أمرٍ يعنِّت أمته، أو يشقّ عليها ويدخلها في الآصار والأغلال.

(﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾) بهدايتكم وإنقاذكم من النار.

(﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾) وعطوف عليهم ومحبّ لهم كل خير.

ومن الأدلة على أن محمداً رسول الله، شهادة الله له بأنه رسول من عنده قال جلَّ وعلا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وقد أيده سبحانه بالآيات الباهرة الدالة على صدقه، وأعظمها القرآن الكريم الذي أعجز أهل الأرض بفصاحته وبلاغته.

ومن البراهين على صدقه، نصر الله لمن اتبعه ولو كانوا أضعف الناس، وخذلان الله من عاداه وعقوبته في الدنيا ولو كانوا أكثر الناس وأقواهم.

وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ليس المقصود بها هو التلفظ بها فقط، بل التلفظ والعمل بما اقتضاه معناها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الشهادة

....

لرسول الله بأنه نبي، لا تدخل الإنسان في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فشهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق وأن دينه من خير أديان البرية ديناً لم تدخله هذه الشهادة في الإسلام، ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة، من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق، ولم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً»[1] *.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٣٨.

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

معناها

(ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله):

(طاعته فيما أمر) من الواجبات والمستحبات، وقد قرن الله طاعته بطاعة الرسول ﷺ، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾.

(وتصديقه فيما أخبر) به من أخبار الأمم الماضية، أو الأمور المستقبلة، فأخباره حق وصدق لا كذب فيها ولا خلف، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الإيمان يرجع إلى أصلين: طاعة الرسول ﷺ فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر»[1].

المتابعة للنبي ﷺ تعظم التوحيد في النفس

(واجتناب ما عنه نهى وزجر) أي: اجتناب كل ما نهى عنه وحذر منه قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، وقال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم» متفق عليه[2]. ويجب أن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد، وكلما ابتعد المرء عن السيئات وعمل الصالحات كان محققاً للشهادتين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وكلما كان الرجل أتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له في الدين، وإذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك، فإذا أكثر بعده عنه، ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول ﷺ»[3].

(وأن لا يعبد الله إلا بما شرع) سبحانه في كتابه وما جاء به رسوله ﷺ،

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢/ ٤٥١.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦٨٥٨) ٦/ ٢٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٣٧) ٢/ ٩٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الفتاوى ١٧/ ٤٩٨.

....

لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الزهري ـ رحمه الله ـ: «من الله الرسالة، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم»[1].

فأول ما يجب على العبد، معرفة معنى الشهادتين مع النطق بها بلسانه، وأن يعمل بما دلت عليه، ومن علم معناها وعمل بمقتضاها فهو السعيد حقاً، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «أسعد الخلق وأعظمهم نعيماً وأعلاهم درجةً، أعظمهم اتباعاً وموافقة له علماً وعملاً»[2].

فجماع دين الإسلام، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعبده بما شرعه سبحانه وتعالى، من الواجبات والمستحبات والمندوبات، ومن سلك غير طريق المصطفى ﷺ لم يفتح له الباب، قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»[3] *.

---

(١) صحيح البخاري تعليقاً رقم (٤٦) ٦/ ٢٧٣٨.

(٢) الفتاوى ٤/ ٢٦.

(٣) مدارج السالكين ٣/ ١٢١.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ

دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد

(**ودليل**) أن (**الصلاة**) المفروضة، (**والزكاة**) من أركان الإسلام، ودليل (**تفسير التوحيد**) الذي هو الأساس الذي لا يستقيم إسلام عبد إلا به:

(**قوله تعالى**): (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾) أي: الكفار في جميع الأزمان (﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾) وحده (﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه.

(﴿حُنَفَآءَ﴾) أي: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

(﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾) بأركانها وواجباتها في أوقاتها، وهي أشرف عبادات البدن.

(﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾) المفروضة، وفيها إحسان إلى الفقراء والمحاويج، وخصَّ الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: (﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾)، لفضلهما وشرفهما.

(﴿وَذَٰلِكَ﴾) أي: التوحيد والإخلاص في الدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هو (﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾) أي: الملة القائمة، والشريعة العادلة المستقيمة، المعتدلة على الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

دليل الصيام

(**ودليل**) أن (**الصيام**) في شهر رمضان المبارك أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يستقيم الإسلام إلا بها:

(**قوله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾) أي: فرض، وذلك في السنة

عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الثانية من الهجرة (﴿عَلَيۡكُمُ﴾) يا أمة محمد ﷺ (﴿ٱلصِّيَامُ﴾) في شهر رمضان (﴿كَمَا كُتِبَ﴾) وفرض (﴿عَلَى﴾) الأمم (﴿ٱلَّذِينَ﴾) سلفوا (﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾).

ومن حكمة فرض الصيام على جميع الأمم: لتنال النفوس التقوى، لذلك قال: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾)، لما فيه من زكاة النفس وتطهيرها وتنقيتها من الأخلاق الرديئة، وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لها أن تنافس غيرها في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال.

دليل الحج

(ودليل) أن **(الحج)** هو الركن الخامس من أركان الإسلام: **(قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾) أي: يجب على الناس التعبد لله، ومن ذلك (﴿حِجُّ﴾) وقصد (﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾) الحرام الذي في مكة المكرمة على (﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ﴾) الوصول (﴿إِلَيۡهِ﴾) من المكلفين (﴿سَبِيلٗاۚ﴾) بالقدرة على الذهاب بنفسه، وملك الزاد والراحلة، ووجود المحرم للمرأة.

(﴿وَمَن كَفَرَ﴾) بعبادة ربه وأعرض عنها (﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ﴾) عبادة جميع (﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾) بل إنهم هم المحتاجون إليه، وهو سبحانه غني عنهم كما قال سبحانه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ *.

المرتبة الثانية: الإيمان، وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق،

المرتبة الثانية: الإيمان

(المرتبة الثانية): من مراتب الدين مرتبة **(الإيمان)**، والإيمان: هو قول واعتقاد وعمل، قول اللسان، واعتقاد القلب، وعمل الجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فدخل فيه جميع المأمورات من الواجبات أو المستحبات، ودخل فيه ترك جميع المنهيات، فما من خصلة من خصال الطاعات إلا وهي من الإيمان، ولا ترك محرم من المحرمات إلا وهو من الإيمان.

والإيمان **(بضع وسبعون شعبة)** هذا هو لفظ الحديث الذي رواه مسلم[١]، ورواه البخاري بلفظ «بضع وستون»[٢]. وورد عند مسلم[٣] برواية أخرى بالشك «بضع وستون أو بضع وسبعون» قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «إن المعول على المتيقن وهو الأقل وهو بضع وستون»[٤].

والبضع: من الثلاثة إلى التسعة.

والشعبة: الطائفة من الشيء والقطعة منه.

شعب الإيمان

والشعبة من شعب الإيمان يدخل تحتها أفراد من الخصال، وكل خصلة من خصال الخير فهي من شعب الإيمان، **(فأعلاها)** وأجلها وأساسها كلمة التوحيد **(قول: لا إله إلا الله)** فهي كلمة الإخلاص وكلمة الإسلام، وهي العروة الوثقى، وكلمة التقوى، وأساس الملة، ومفتاح الجنة.

(وأدناها) أي: أدنى شعب الإيمان **(إماطة)** أي: إزالة **(الأذى عن الطريق)** من شوكٍ وحجرٍ ونحو ذلك مما يتأذى المارُّ به.

---

(١) رقم (٣٥) ١/ ٦٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رقم (٩) ١/ ١٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) رقم (٣٥) ١/ ٦٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) فتح الباري ١/ ٥٢.

والحياء شعبة من الإيمان.

(والحياء شعبة من) شعب **(الإيمان)** أي: بعض منه.

والحياء: غريزة يحمل المرء على فعل ما يجمل ويزين، ويمنعه من فعل ما يدنس ويشين، وأخبر النبي ﷺ أن الحياء لا يأتي إلا بخير متفق عليه[١].

وإنما جعله بضعة؛ لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي؛ ولأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار وانتهاء، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان، والحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً، بل هو خاصة الإنسانية، وفي الحديث: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخاري[٢].

ومرتبة الإيمان أعم من مرتبة الإسلام من جهة نفسها وأخص من جهة أصحابها.

الإيمان وصف أعلى من الإسلام

وأهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، وأهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان بخلاف العكس قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ . فإن من حكمت له النصوص أنه مؤمن فإنه مسلم على كل حال، فإن الإيمان وصف أعلى من وصف الإسلام، لأنه مشتق من الأمن فهو من الأمور الباطنة الذي يؤتمن عليه ويكون خفية، والإسلام من الأمور المدركة المحسوسة في الظاهر، مشتق من التسليم، أو من المسالمة.

فإذا أطلق الإيمان في النصوص دخل فيه الإسلام، وإذا أطلق الإسلام لم يدخل فيه الإيمان، ومن أُثبت له الإيمان في النصوص فإنه ثابت له الإسلام.

---

(١) صحيح البخاري رقم (٥٧٦٦) ٥/ ٢٢٦٧، وصحيح مسلم رقم (٣٧) ١/ ٦٤ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) رقم (٥٧٦٩) ٥/ ٢٢٦٨ من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

....

والمسلم لا بد أن يكون معتقداً أركان الإيمان الستة ليصح إسلامه، وإلا كان منافقاً، وإذا كان المسلم معتقداً أركان الإيمان الستة وأخلَّ بغيرها من واجبات الإيمان، فإنه لا يستحق أن يثنى عليه الثناء المطلق ـ يعني: الكامل ـ؛ لأن إيمانه ناقص، جاء في الدرر السنية: «ومن تأمل النصوص تبين أن الناس يتفاضلون في التوحيد والإيمان تفاضلاً عظيماً، وذلك بحسب ما في قلوبهم من الإيمان بالله والمعرفة الصادقة والإخلاص واليقين»(١) *.

---

(١) الدرر السنية ١/٢٠٧.

وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته،

أركان الإيمان

(وأركانه) أي: أركان الإيمان وأصوله التي يُبنى عليها، والتي يزول بزوالها **(ستة)** أركان، ويكون بزوال الواحد من تلك الستة كافراً كفراً يخرج عن الملة، وما عداها من الشعب لا يزول بزواله، لكن منها ما يزول بزواله كمال الإيمان الواجب، ومنها ما يزول بزواله كمال الإيمان المندوب.

والركن الأول من أركان الإيمان: **(أن تؤمن بالله)**.

والإيمان بالله أعظم أركان الإيمان وأساسه، وما بعده من الأركان مندرج في هذا الركن وهو أصل الأصول، ويتضمن الإيمان بربوبية الله وبألوهيته وبأسمائه وصفاته.

والإيمان بربوبية الله: هو إفراد الله بأفعاله، من الخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة وغير ذلك من أفعاله تبارك وتعالى.

فنؤمن أنه لا يحيي ولا يميت، ولا يخلق ولا يرزق سواه، وهذا هو توحيد الربوبية.

والإيمان بتوحيد الألوهية: هو إفراد الله بأفعال العباد فلا يصرف العبد أي عبادة لغير الله جلَّ وعلا، من الطواف والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة، ونؤمن بأن عبادة من سواه عبادة باطلة.

والإيمان بتوحيد الأسماء والصفات: هو إثبات ما أثبته الله لنفسه، من الأسماء والصفات، وما أثبته له رسوله ﷺ منها، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل نؤمن بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

(و) الركن الثاني من أركان الإيمان الستة: أن تؤمن بـ **(ملائكته)**.

والإيمان بالملائكة: أن تؤمن بجميع الملائكة، وأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، نؤمن بهم إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، وتعييناً في التعيين، كما ورد في الكتاب والسنة، كجبريل

وميكائيل وإسرافيل ومالك وملك الموت، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، وهم عالم غيبي خلقوا من نور، وعددهم كثير لا يحصيهم إلا الله.

(و) الركن الثالث: أن تؤمن بـ **(كتبه)**.

والإيمان بالكتب يقتضي: الإيمان بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من السماء، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، ويفصل الإيمان بالقرآن والزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى، ونؤمن بأن الكتب السابقة كلها منسوخة بالقرآن العظيم، وهي غير موجودة الآن وما يُزعَمُ وجوده فهو محرّف، فلا يجوز العمل بشيءٍ منها ولا التحاكم إليها، فإن التحاكم والعمل لا يجوز إلا إلى القرآن العظيم وما جاء في سُنَّة النبي محمَّدٍ ﷺ قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾.

(و) الركن الرابع من أركان الإيمان: أن تؤمن بـ **(رسله)**.

والإيمان بالرسل يقتضي: الإيمان بجميع الرسل إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، فنؤمن بمن جاء تفصيلهم في الكتاب والسنة على التعيين، وأعظم ذلك الإيمان بنبينا محمد ﷺ، وممن يُؤمَنُ بهم تفصيلاً، أولوا العزم من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بغيرهم ممن سمى الله في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، ونؤمن بمن لم يسم في النصوص، ولا نفرق بين أحد منهم في الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾، والإيمان بهم فرض، وهو التصديق بأنهم رسل الله إلى عباده، صادقون فيما أخبروا به عن الله، وأنهم بلغوا عن الله رسالاته، وبينوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وهم بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء.

(و) الركن الخامس: أن تؤمن بـ **(اليوم الآخر)**.

والإيمان باليوم الآخر هو: التصديق بيوم القيامة وما يكون بعد الموت في القبر، من العذاب والنعيم، وما في الآخرة من الحساب والميزان، والجنة والنار، وأنهما دار ثوابِه وجزائِه للمحسنين والمسيئين، وأكبر ذلك وأعظمه الإيمان ببعث هذه الأجساد وإعادتها كما كانت أجساداً بعظامها وأعصابها، حتى يقع الثواب على هذا الجسد والروح جميعاً، على ما فعلا من طاعة الله، أو يعاقبا على المعاصي التي صدرت منهما جميعاً، فتؤمن بأن الذي أوجد هذا الجسد وانفرد بخلقه يبعثه حياً ويعيده كما كان *.

وتؤمن بالقدر خيره وشره،

(و) الركن السادس من أركان الإيمان: أن **(تؤمن بالقدر)** أي: بما قدره الله وكتبه من **(خيره)** أي: بما فيه من الخير والسرور، **(وشره)** أي: بما فيه من الشر والأحزان.

مراتب القدر

والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربع مراتب يجب اعتقادها والإيمان بها:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله بالأشياء قبل حدوثها. فإن الرب علم بعلمه السابق ما هو كائن وما سيكون كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾، وقال النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» رواه مسلم[1].

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يقع في ملك الله إلا ما أراده الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله أوجد جميع الخلق، وأن ما في الكون بتقدير الله وإيجاده قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وقال عزَّ وجل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

ولا يصير المرء مؤمناً بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة الأشياء، وقد جمعها الناظم في قوله:

---

(١) رقم (٢٦٥٣) ٤/ ٢٠٤٤ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

....

عـلـمٌ كـتـابـة مـولانـا مـشـيـئـتُـه وخـلـقـه وهـو إيـجـادٌ وتـكـويـنُ

فيجب على العبد أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» رواه أبو داود[١].

والمؤمن بالقدر يفوض أموره كلها لله، ولا يعتمد على السبب نفسه، لأن كل شيء بقدر الله، وإيمانه بذلك يثمر له الطمأنينة والراحة بما يجري عليه من أقدار الله، لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض، قال عليه الصلاة والسلام: «عجباً لأمر المؤمن، كلُّه خير» رواه مسلم[٢] *.

---

(١) رقم (٤٦٩٩) ٤/ ٢٢٥ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رقم (٢٩٩٩) ٤/ ٢٢٩٥ من حديث صهيب رضي الله عنه.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾،

أدلة أركان الإيمان

(والدليل على هذه الأركان) أي: أركان الإيمان **(الستة)** وأنه لا يستقيم إيمان العبد إلا بها جميعاً، وأنه متى انتفى واحد منها لم يكن المرء مؤمناً **(قوله تعالى:** ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾**)**، نزلت هذه الآية حين أمر الله المؤمنين بالتوجه أولاً إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عزَّ وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى أي جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا قال:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ امتثال أوامر الله، واتباع ما شرع، وأعظمه ما ذكر في هذه الآية أو هذه أنواع البر كلها وبدأ بالإيمان بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: ولكن البر الإيمان بالله، أو ولكن البر من آمن بالله، أو ذا البر بر من آمن بالله أي: بتفرده جلَّ وعلا بالربوبية والألوهية والأسماء الحسنى والصفات العليا، إذ هو أصل الأصول.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت، من بعث الخلائق وإعادة الأجساد كما كانت، ورد الأرواح إليها، وجمع الأولين والآخرين ليوفى كل عامل ما عمل.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه ووصفهم رسوله ﷺ.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو اسم جنس يشمل جميع الكتب المنزلة من السماء

ودليل القدر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب ونسخها جميعَها.

﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ عموماً، وخصوصاً خاتمهم محمد ﷺ.

دليل القدر

(ودليل) أن **(القدر)** ركنٌ من أركان الإيمان لا يستقيم إيمان عبد إلا به **(قوله تعالى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾) وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية.

(﴿خَلَقْنَاهُ﴾) نحن لا خالق لها سوانا.

(﴿بِقَدَرٍ﴾) أي: أن ما خلقناه مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ، بما سبق به علمنا، وجرى به قلمنا، بوقته ومقداره وجميع ما اشتمل عليه من الأوصاف.

وبعض الناس لا يرضى بما قسمه الله له من خير، ويقدح بما كتب عليه من شر تسخطاً على ربه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء الله، يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامناً كُمُون النَّار في الزِّناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتباً على القدر، وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟!!»(١) *.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٣٥.

المرتبة الثالثة: الإحسان

(**المرتبة الثالثة**) من مراتب الدين: مرتبة (**الإحسان**) وهو نهاية الإخلاص، والإخلاص إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن، وهذا هو الإحسان، ولذا يفسر الإحسان بالإخلاص.

واشتقاقه من الحسن الذي هو نهاية الإخلاص في القلب، ومن حيث الظاهر كمال المتابعة.

وتفسيره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته، فإن من اتصف بذلك فإنه يكمل العمل في الظاهر والباطن، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى والإقبال إليه والتوكل، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقام الإحسان»[1].

وقال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «حاصله: ـ أي: الإحسان ـ راجع إلى إتقان العبادات، ومراعاة حقوق الله تعالى ومراقبته، واستحضار عظمته وجلالته حال العبادات»[2].

دوائر الدين

والإحسان أعلى المراتب وأعمها من جهة نفسها، وأخصها من جهة أصحابها، كما أن الإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه، ولهذا يقال كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، وإذا أطلق الإحسان فإنه يدخل فيه الإيمان والإسلام، فإن الإسلام والإيمان والإحسان دوائر، أوسعها دائرة الإسلام، ثم يليها في السعة الإيمان، ثم أضيقها الإحسان، كدوائر كل واحدة منها محيطة بالأخرى، ومعلوم أن من كان في

(١) الفتاوى ١٥/ ١٠.
(٢) شرح الأربعين لابن دقيق العيد ص٤٣.

....

دائرة الإحسان فهو داخل في الإسلام والإيمان، وإذا خرج عن الأول فهو داخل في الثانية وهي دائرة الإيمان، وإذا خرج عنها فهو داخل في الثالثة وهي دائرة الإسلام، ومن خرج عن هذه الدوائر الثلاث فهو خارج إلى غضب الله وعقابه، وداخل في دوائر الشيطان ـ والعياذ بالله ـ، فظهر بالتمثيل بهذه الدوائر صحة قول من يقول: كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً، فلا يلزم من دخوله في الإسلام أن يكون داخلاً في الإحسان والإيمان، وليس المراد أن من لم يكن في الإحسان والإيمان يكون كافراً، بل يكون مسلماً ومعه من الإيمان ما يصحح إسلامه، لكن لا يكون مؤمناً الإيمان الكامل الذي يستحق أن يثنى عليه به الثناء المطلق ـ أي: الكامل ـ، أما مجرد الثناء فهو يستحقه بقدر ما معه من الإيمان، فإنه لو كان مؤمناً الإيمان الكامل لمنعه من المعاصي والمحرمات، وقد قيل للنبي ﷺ: «أعطيتهم وتركت فلاناً وهو مؤمن فقال: أو مسلماً» رواه أحمد[١]، وقال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» متفق عليه[٢]، وقال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه» متفق عليه[٣]. فالنصوص لم تنفِ عنهم الإسلام، بل أثبتت لهم أحكام الإسلام من عصمة الدم وغيرها.

أهل الإحسان

فأهل الإحسان هم خواص أهل الإيمان، كما أن أهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، فإن أهل الإحسان كملوا عبادة الله إلى أن وصلوا إلى حد المراقبة، وأهل الإحسان هم الصفوة وهم الخلص من عباد الله المؤمنين.

(١) المسند رقم (١٥٧٩) ١/ ١٨٢ من حديث سعد بن مالك.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦٧٧٢) ٤/ ٢٤٥، وصحيح مسلم رقم (٥٧) ١/ ٧٦ - ٧٧ من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٦٧٠) ٥/ ٢٢٤٠، وصحيح مسلم رقم (٤٦) ١/ ٦٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

ومما يعين على الوصول إلى مرتبة الإحسان كثرة ذكر الله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إنه ـ أي: الذكر ـ يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت»[1].

ومراقبة الله هي أصل الأعمال القلبية، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «المراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به»[2] *.

---

(١) الوابل الصيب ص٥٢.

(٢) إعلام الموقعين ٤/ ٢٠٣.

ركن واحد وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾، **وقوله:** ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ

ركن الإحسان

والإحسان **(ركن واحد)**.

وهو: **(أن تعبد الله)** أي: تتعبد الله بأيِّ عبادة كانت **(كأنك تراه)** أي: كأنك ترى ربَّك الذي قمت بين يديه.

(فإن لم تكن تراه) وهي درجة المراقبة، **(فإنه)** أي: فاعلم أنه **(يراك)** أي: مطلع على جميع خفاياك.

فهاتان درجتان: إحداهما أكمل من الأخرى، فإن لم تحصل عبادة الله كأنك تشاهده، فاعبده مستحضراً أنه يراك في كلِّ أعمالك، وأنه بصيرٌ عليمٌ بجميع ما تفعله.

الدليل على مرتبة الإحسان

(والدليل) على مرتبة الإحسان من القرآن **(قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾) ربهم بفعل الطاعات وترك المحرمات.

(﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾) في عبادتهم ربهم وإحسانهم للخلق، فالله مع عباده المتقين، والذين هم محسنون في العمل يحفظهم ويكلؤهم ويؤيدهم، وهذه معية خاصة.

(و) دليل ثانٍ على مرتبة الإحسان **(قوله)** تعالى: (﴿وَتَوَكَّلۡ﴾) في جميع أمورك (﴿عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾) فإنه مؤيدك وحافظك، ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله والصعود إلى منزلة الإحسان فقال: (﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ﴾) في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة (﴿حِينَ تَقُومُ﴾) إليها.

(﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾) أي: ويراك في صلاتك في حال ركوعك وسجودك وقعودك فيها، وخص الصلاة بالذكر لفضلها وشرفها، ولأن من

﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، **وقوله**: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ **الآية**.

استحضر فيها قرب ربه خشع وذل وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله ويستعين بها على جميع أموره.

(﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾) يسمع ويعلم جميع حركاتك.

(و) دليل ثالث على مرتبة الإحسان **(قوله)** تعالى: (﴿وَمَا تَكُونُ﴾) يا أيها النبي (﴿فِي شَأۡنٖ﴾) في أيِّ عملٍ من الأعمال.

(﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾) أي: وما تتلو أيَّ آية من القرآن.

(﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾) صغيرٍ أو كبيرٍ، أنت وأمتك.

(﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾) نحن مشاهدون ومطلعون على كلِّ ذلك، وعلى جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم.

(﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾) وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به إلى حين انقضائكم منه، كل ذلك مطلعون عليه *.

والدليل من السنة حديث جبرائيل المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر،

دليل مراتب الدين الثلاث من السنة

(والدليل) على مراتب الدين الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان **(من السنة)** النبوية **(حديث جبرائيل المشهور)** الذي قال عنه القرطبي ـ رحمه الله ـ: «هذا الحديث يصلح أن يقال له: أمّ السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة»[1]، وقال عنه النووي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللطائف، بل هو أصل الإسلام»[2].

وقد أخرج هذا الحديث العظيم الإمام مسلم في صحيحه **(عن عمر بن الخطاب** رضي الله عنه) ثاني الخلفاء الراشدين **(قال)** حاكياً تلك المحاورة بين خير المرسلين محمد ﷺ وأفضل الملائكة جبريل عليه السلام:

(بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ) وفي رواية في الصحيحين[3]: «كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس».

(إذ طلع علينا رجل) هو مَلَك في صورة رجل.

(شديد بياض الثياب) لا دنس عليها، وفيه دليل على تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك.

(شديد سواد الشعر) لا غبار على شعره، والمسافر من شأنه أن تكون عليه أمارات السفر.

ومع ذلك **(لا يرى عليه أثر السفر)** من الإعياء والتعب وأثر المشقة وتغير الحال من السفر.

---

(١) فتح الباري ١/ ١٢٥.

(٢) شرح النووي على مسلم ١/ ١٦٠.

(٣) صحيح البخاري رقم (٥٠) ١/ ٢٧، وصحيح مسلم رقم (٨) ١/ ٣٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة،

(ولا يعرفه منا أحد) فلا أثر للسفر عليه، ولا يعرفه الصحابة؛ لأنه ليس من المقيمين في المدينة فعجب الصحابة منه.

(حتى جلس إلى النبي ﷺ) قريباً منه.

(فأسند) جبريل **(ركبتيه إلى ركبتيه)** أي: إلى ركبتي النبي ﷺ، **(ووضع)** جبريل **(كفيه على فخذيه)** أي: على فخذي النبي ﷺ وجلس على هيئة المتعلم، وفي رواية: «ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ» رواه الدارقطني[1]، ولسليمان التيمي ـ رحمه الله ـ «فتخطى حتى برك بين يدي النبي ﷺ كما يجلس أحدنا في الصلاة، ثم وضع يده على ركبتي النبي ﷺ»[2]. وصنيعه منبه للإصغاء إليه، وفيه إشارة لما ينبغي للمسئول من التواضع والصفح عما يبدو.

(وقال) جبريل: **(يا محمد أخبرني)** وأعلمني **(عن)** أركان **(الإسلام)**، ما هي؟

(قال) النبي ﷺ: **(أن تشهد)** وتقر **(أن لا إله)** معبود بحقٍّ **(إلا الله)** وحده، **(و)** أن تشهد **(أن محمداً)** هو **(رسول الله)** ﷺ.

(و) أن **(تقيم)** أي: تؤدي **(الصلاة)** المفروضة بشروطها وأركانها وواجباتها.

(و) أن **(تؤتي)** وتؤدي **(الزكاة)** المفروضة لمستحقيها.

---

(١) سنن الدارقطني رقم (٢٠٧).

(٢) فتح الباري لابن حجر ١/١١٦.

وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه،

(و) أن (**تصوم**) شهر (**رمضان**) المبارك.

(و) أن (**تحج**) أي: تقصد (**البيت**) الحرام (**إن استطعت**) السير (**إليه**) أي: إلى الوصول إلى البيت (**سبيلاً**) أي: طريقاً متيسراً من زادٍ وراحلةٍ ووجود المحرم للمرأة لقول النبي ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، فقال رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، قال: انطلق فحج مع امرأتك» متفق عليه[(١)]. وقد أوجبه الله في العمر مرة واحدة، وقد بين النبي ﷺ فضله بقوله: «من حج هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه» متفق عليه[(٢)].

وهذه الأركان الخمسة هي الإسلام، وفي رواية لأحمد[(٣)]: «فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟، قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت».

وهذا هو دليل المرتبة الأولى، وفسره بأعمال الجوارح الظاهرة، والإسلام هو الدين قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وهو الصراط المستقيم الذي أمر الله بالاستقامة عليه.

(**قال**) جبريل عليه السلام: (**صدقت**) يا محمد، (**فعجبنا له**) ولصنيعه هذا (**يسأله ويصدقه**) وسبب عجب الصحابة من هذا السائل؛ لأن من شأن السائل أن يجهل ما يسأل عنه، ولكن السائل هنا يسأل النبي ﷺ ويصدقه فكأنه خبير بالجواب، ولأن ما جاء به النبي ﷺ لا يُعرف إلا من جهته، وليس هذا السائل ممن عُرف بلقائه بالنبي ﷺ واجتماعه به ولا بالسماع منه، بل هو غريب عنهم، ثم هو قد سأل سؤال عارف محقق مصدق فتعجبوا من ذلك *.

---

(١) صحيح البخاري رقم (١٧٦٣) ٢/ ٦٥٨، وصحيح مسلم رقم (١٣٤١) ٢/ ٩٧٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري رقم (١٤٤٩) ٢/ ٥٥٣، وصحيح مسلم رقم (١٣٥٠) ٢/ ٩٨٣ ـ ٩٨٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) المسند رقم (٢٩٢٦) ١/ ٣١٩.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»،

ثم **(قال)** جبريل: **(فأخبرني)** يا محمد **(عن الإيمان)** ما هو؟

(قال) محمد ﷺ: الإيمان هو: **(أن تؤمن بالله)** بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بالله هو أصل للإيمان ببقية أركان الإيمان، وكل ما عداه من الأركان داخلة فيه.

(و) أن تؤمن بـ **(ملائكته)** إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً على التفصيل، بأسمائهم وأعمالهم، وما أوكل إليهم، وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(و) أن تؤمن بـ **(كتبه)** بأن تؤمن بكلِّ كتابٍ أنزله الله على رسله، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وأن جميعها منسوخ بالقرآن العظيم، وأنه قد دخل في الكتب السابقة التصحيف والتحريف.

(و) أن تؤمن بـ **(رسله)** بأن الله اصطفى من البشر رسلاً يهدون الناس إلى الحق، تؤمن بهم إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً على التفصيل، فتؤمن بمن عرفت أسمائهم ومن لم تعرف أسمائهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

(و) أن تؤمن بـ **(اليوم الآخر)** وتصدق بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت.

(و) أن **(تؤمن بالقدر)** وما كتبه الله فيه، من **(خيره)** مما فيه من فرح وسرور، **(و)** من **(شره)** مما فيه من مرارة وأحزان من غير جزع عليه ولا تسخط، فكل ما كان وسيكون، فهو بقضاء الله وقدره ومشيئته وإرادته، وإعادة كلمة «وتؤمن» عند القدر للاهتمام بشأنه، وفي رواية لأحمد: «وتؤمن بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، قال: فإذا فعلت

قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك،

ذلك فقد آمنت؟ قال: إذا فعلت ذلك فقد آمنت»[(١)].

(قال) جبريل: **(صدقت)**.

وهذا دليل المرتبة الثانية، وهي الإيمان وفسره بالأعمال الباطنة، ودل الحديث على أن الإسلام والإيمان إذا اقترنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة.

(قال) جبريل: **(فأخبرني)** يا محمد **(عن الإحسان)** ما هو؟

(قال) النبي ﷺ: **(أن تعبد الله كأنك تراه)** أي: يغلب عليك مشاهدة الحق بقلبك، حتى كأنك تراه بعينك، ومن كان كذلك فإنه يأتي بالعبادة على التمام والكمال.

(فإن لم تكن تراه) أي: إن لم تستحضر أنك ترى الله، فانتقل إلى المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وهي أن تستشعر **(أنه)** تعالى **(يراك)** ومطلع عليك في كل ما تعمل، لا يخفى عليه منك خافية.

وهذا القدر من الحديث أصل من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد العلم، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ، فإن إحسان العبادة، هو الإخلاص فيها والخشوع، وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبته.

وأشار في الجواب إلى حالتين:

أعلاهما: أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه.

والثانية: أن يستحضر أن الحق تعالى مطلع عليه ويرى كل ما يعمل.

---

(١) المسند رقم (٢٩٢٦) ١/ ٣١٩.

....

وهاتان الحالتان تثمرهما معرفة الله وخشيته، وفي رواية: «أن تخشى الله كأنك تراه» رواه مسلم[1] فجعل النبي ﷺ هذا هو الإحسان، وهو دليل المرتبة الثالثة.

ففي هذا الحديث دليل على هذه المراتب الثلاث، وأن أركانها هي ما عدها المصنف ـ رحمه الله ـ *.

(١) رقم (١٠) ١/ ٤٠.

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها ؟ قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان،

(قال) جبريل: **(فأخبرني)** يا محمد **(عن الساعة)** متى تقوم؟

(قال) النبي ﷺ: **(ما المسئول عنها)** يقصد النبي ﷺ نفسه **(بأعلم من السائل)** وهو جبريل أي: أنا وأنت سواء في العلم بها، كلانا لا يعلم متى تقوم؟ فعلمها عند الله وحده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فالخلق كلهم حتى الملائكة والرسل لا يعلمون متى تقوم، فوقتها مما استأثره الله تعالى بعلمه قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

علامات الساعة

(قال) جبريل عليه السلام: فإن لم تعلم متى تقوم الساعة **(فأخبرني)** يا محمد **(عن أماراتها)** وعلاماتها التي تسبق قيامها؟

(قال) محمد ﷺ: من علامات الساعة: **(أن تلد الأمة)** الرقيقة من الجواري **(ربتها)** أي: مالكتها وسيدتها، والمعنى: أن السراري تكثر في العرب حتى يوجد أن الأمة تلد سيدتها، وفسر بغير ذلك، وحاصله: الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربي وضيعاً والسافل عالياً.

ومن أماراتها: **(أن ترى)** وتشاهد **(الحفاة)** الذين لا نعال عليهم، **(العراة)** الذين لا ثياب تسترهم، **(العالة)** الفقراء، **(رعاء)** أي: رعاة **(الشاء)** أي: الغنم، **(يتطاولون)** أي: يتنافسون **(في البنيان)** ويتفاخرون به بعد أن كانوا فقراء رعاة أغنام، ومعناه: أن أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهوا في البنيان، قال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «إنما خص رعاء الشاة بالذكر، لأنهم أضعف أهل البادية»[1]. والمراد أن

---

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ٤٤.

قال: فمضى فلبثنا ملياً فقال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

أسافل الناس يصيرون رؤساء، وتكثر أموالهم حتى يتباهوا بطول البنيان وزخرفته، وفي الحديث: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» رواه البخاري[1]؛ لأنه يفسد نظام الدين والدنيا، وهذا كله من تغير الأحوال في آخر الزمان وانعكاس الأمور.

(قال) عمر بن الخطاب ﷺ: **(فمضى)** جبريل أي: خرج **(فلبثنا)** نحن الصحابة ومعنا النبي ﷺ **(ملياً)** وقتاً طويلاً **(فقال)** النبي ﷺ بعد انصراف جبريل: **(يا عمر)** بن الخطاب **(أتدري من)** هو **(السائل)** الذي كان يسأل وأنتم حاضرون؟

(قلت: الله ورسوله أعلم)، لأن الرجل غريب لا نعرفه ولم نره من قبل، وهذا فيه أدب أن من سئل عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه، ولا يتكلف ما ليس له به علم، فما علمه يجيب عنه، وما لا يعلمه يقول فيه: الله أعلم، وفي حياة النبي ﷺ يجوز أن يقول في أمر الدين: الله ورسوله أعلم، لنزول الوحي على النبي ﷺ، أما بعد وفاته فمن سئل عن شيء وهو لا يعلمه فإنه يقتصر على قوله: الله أعلم.

أهمية حديث جبريل

(قال) النبي ﷺ: **(هذا)** السائل الذي أتاكم هو **(جبريل)** أفضل الملائكة **(أتاكم)** متمثلاً في صورة رجل لـ **(يعلمكم)** أي: لتتعلموا **(أمر)** وأسس **(دينكم)** بتلك الأسئلة العظيمة التي كان يسألها، فأخبر أن ما ذكر في هذا الحديث هو أمر الدين وأساسه، فإنه قد اشتمل على أصول الدين والعقائد، بل انحصرت العلوم الشرعية في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، وعقيدة أهل السنة والجماعة عليه، وشرف هذا الحديث وجلالته أمر مجمع عليه، قال

---

(١) رقم (٥٩) ١/ ٣٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

....

ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «مذهب السلف وأئمة الخلف أنَّ من صدق بهذه الأمور ـ يعني: المذكورة في الحديث ـ تصديقاً جازماً لا ريب فيه ولا تردد، كان مؤمناً حقاً سواء كان ذلك عن براهين قاطعة، أو عن اعتقادات جازمة»[1]، وقال عنه القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: «اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه، ومتشعبة منه»[2] *.

(١) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد ص ٤٢.

(٢) فتح الباري ١/ ١٢٥.

الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ

(**الأصل الثالث**) من أصول الدين الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها:

(**معرفة نبيكم محمد** ﷺ)، وهو أصل عظيم يجب معرفته قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر»(١)، فإنه عليه الصلاة والسلام هو الواسطة بيننا وبين الله، ولا طريق لنا لمعرفة ما ينجينا من غضب الله وعقابه، ويقربنا من رضى الله وثوابه، إلا بما جاء به نبينا محمد ﷺ، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به ﷺ واتباعه منها، إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب»(٢)، وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ»(٣)، ولا صلاح للعالم إلا بالرسالة، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونور حياته»(٤)، والله أرسل الرسل رحمة للعباد كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «اقتضت رحمة العزيز الرحيم، أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ومن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود سبحانه، بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها»(٥).

أهمية معرفته

وإذا كان كذلك عرفنا وجه كون معرفة النبي ﷺ أحد الأصول الثلاثة

(١) زاد المعاد ١/ ٦٩.
(٢) الفتاوى ١/ ٥.
(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١/ ٣٨٩.
(٤) الفتاوى ١٩/ ٩٣.
(٥) الصواعق المرسلة ١/ ١٥٠.

التي يجب علينا معرفتها، فإنا لا نعرف الأصل الأول الذي هو معرفة الرب، ولا الأصل الثاني الذي هو دين الإسلام، إلا بالواسطة بيننا وبين الله، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[(١)].

ومعرفته ﷺ تنتظم أشياء عديدة: منها معرفة اسمه ونسبه وعمره وزمن نبوته ورسالته، ومعرفة ما نُبِّيء به وما أرسل به وبلده ومهاجره ووفاته، ومنها ـ وهو أعظمها ـ معرفة ما بعث به، وغير ذلك مما ذكره المصنف وغيره.

نسب النبي ﷺ

(و) نبينا ﷺ اسمه **(محمد)** ومعناه: الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، وله عدة أسماء: هذا أشهرها وأفضلها وأعظمها، ولهذا جاء في القرآن بهذا الاسم كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، وقوله عزَّ وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، ولقبه: أبو القاسم.

ووالده **(عبد الله)**، ولم يدرك النبوة، ومات على الكفر، عن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: في النار، فلما قفّى دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار» رواه مسلم[(٢)].

وجده **(عبد المطلب)** واسمه شيبة، ويقال له: شيبة الحمد، لجوده وجماع أمر قريش إليه، وإنما سمي بعبد المطلب، لأن عمه المطلب قدم به

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٦٩.

(٢) رقم (٥٢١) ١/ ١٣٢.

هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

مكة وهو رديفه وقد تغير لونه بالسفر فحسبوه عبداً له فقالوا: هذا عبد المطلب أي: عبدٌ للمطلب، فعلق به هذا الاسم.

ووالد عبد المطلب هو (**هاشم**) واسمه عمرو وإنما سمي هاشماً، لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في أعوام الجوع.

(**وهاشم من**) قبيلة (**قريش**) وهي أشهر وأشرف قبائل العرب.

(**وقريش**) أصلها (**من العرب**) فهي قبيلة عربية.

(**والعرب من ذرية**) ـ أي: من سلالة ـ (**إسماعيل بن إبراهيم الخليل**) أبي الأنبياء (**عليه وعلى نبينا**) محمد (**أفضل الصلاة والسلام**).

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد كبر سنه وهبه الله ولداً سماه إسماعيل، وإسماعيل هو الملقب بالذبيح وعاش مع العرب، ثم من بعده وهبه الله إسحاق، وخرج من نسل إسماعيل نبينا محمد ﷺ، وإسحاق خرج بقية الأنبياء من نسله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، لذا سمي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبو الأنبياء، لأن الأنبياء بعده من نسله، إما من طريق إسماعيل وهو محمد ﷺ، أو من طريق إسحاق، وهم جميع الأنبياء عدا نبينا محمد ﷺ، قال النبي ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم[1].

فنبينا أشرف الناس نسباً، فهو هاشمي قرشي، وهكذا الرسل تبعث من أكرم قومها أحساباً *.

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٦) ٤/ ١٧٨٢ من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً.

ولادته ﷺ

وفي شهور حمل أم النبي ﷺ به توفي والده، وولد عليه الصلاة والسلام عام الفيل يوم الاثنين، وفي يوم الاثنين بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر إلى المدينة، وفيه توفي، قال ﷺ: «ذلك يوم ولدت فيه، وأنزل عليَّ فيه» رواه مسلم[1]، ولا يجوز أن يقام احتفال بمولده ﷺ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقم لمولده في حياته احتفالاً، والصحابة رضي الله عنهم وهو أحب الناس إليهم لم يفعلوا ذلك.

ولما ولد يتيماً تربى في بيت جده عبد المطلب، ثم عند عمه أبي طالب، ثم تزوج خديجة وله خمس وعشرون سنة، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم فمن مارية القبطية، وكان النبي ﷺ قبل البعثة يلقب بالأمين.

عمره ﷺ

(وله من العمر) الذي عاشه في هذه الدنيا **(ثلاث وستون سنة)** هي مجموع عمره من ولادته إلى مماته.

(منها) أي: من هذه السنين **(أربعون)** سنة **(قبل النبوة)** فلم يوح إليه إلا وعمره أربعون عاماً، وهذا سن اكتمال الأشد قال سبحانه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾.

ومن عمره **(ثلاث وعشرون)** سنة **(نبياً)** يوحى إليه و**(رسولاً)** مأموراً بالرسالة والتبليغ.

وزمن نبوة نبينا محمد ﷺ ورسالته ثلاث وعشرون سنة، مكث منها في مكة ثلاثة عشر عاماً، وفي المدينة النبوية عشرة أعوام، وكان عمره مباركاً أظهر الله به الدين، وتمت به الشريعة، ودخل الناس في الدين أفواجاً، لاقى

---

(١) صحيح مسلم رقم (١١٦٢) ٢/ ٨١٩ من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

خلال تلك السنين خوفاً وجوعاً وابتلاءً، وتسلط الأعداء عليه، وقدموا إليه في بلد مهاجره لقتاله، فصبر وجاهد حتى بلَّغ رسالة ربه.

نبوته ورسالته ﷺ

وقد (**نبيء**) أي: أنزل عليه الوحي مأموراً بالنبوة يوم الاثنين في رمضان بغار حراء، أمره الله بالنبوة (**بـ**) صدر سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ورجع بها يرجف فؤاده فقالت له خديجة رضي الله عنها: «كلا، والله لا يخزيك الله أبداً» متفق عليه(١).

(**وأرسل**) من الله بعد فترة من الوحي (**بـ**) صدر سورة (**المدثر**)، فإنه لما جاءه الملك فَرَق منه ـ أي: خاف ـ فقال: دثروني فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فكانت أول ما أنزل عليه بعد فترة الوحي، ثم حمي الوحي وتتابع، فشمر حينئذ عن ساق العزم ودعا إلى الله.

بلده

(**وبلده مكة**) أشرف البقاع عند الله، بها ولد ونشأ، إلا ما كان منه وهو مع مرضعته السعدية في البرية، ثم رجع إلى مكة في حضانة جده، ثم عمه، وأوحي إليه بها، وبقي بها بعد أن أوحي إليه ثلاث عشرة سنة.

(**و**) بعد ذلك (**هاجر إلى المدينة**) بعد أن همُّوا بقتله فتغيب في الغار، ثم سار هو وأبو بكر مهاجراً إلى المدينة، وذلك بعد أن بايعه أهلها على النصرة والمؤازرة، وأرخت الأمة تاريخها من مهاجره ﷺ *.

(١) صحيح البخاري رقم (٤٦٧٠) ٤/ ١٨٩٤، وصحيح مسلم رقم (١٦٠) ١/ ١٤١ من حديث عائشة رضي الله عنها.

بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾

الحكمة من بعثته ﷺ

وقد ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ جملة مما يُعرف به النبي ﷺ، وأعظمها وأعلاها معرفة ما بعث به النبي ﷺ، فإنه (**بعثه الله بالنذارة عن الشرك**) يحذر منه وينذر من وباله في الدنيا والآخرة، لأنه يحبط العمل، وصاحبه مخلد في النار، وبعثه الله (**يدعو إلى التوحيد**) وإفراد الله بالعبادة، وقَدَّم المصنف النذارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد، لأن هذا مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله، ولأن الآية ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ تقتضي ذلك، فبدأ بجانب الشرك لكون العبادة لا تصح مع وجود المنافي، فلو وجدت والمنافي لها موجود لم تصح قال سبحانه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾، ولقوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم دمه وماله وحسابه على الله عزَّ وجل» رواه مسلم[١]. ثم ثنى بالتوحيد، لأنه أوجب الواجبات، ولا يرفع عمل إلا به، وإذا خالط الشرك العمل أفسده وأحبط العمل قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الدليل على ذلك

(**والدليل**) على أن الله بعث نبيه محمداً ﷺ لينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد:

(**قوله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾) أي: المتدثر بثيابه المتغشي بها، وهذا من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي.

(﴿قُمْ﴾) أي: من دثارك (﴿فَأَنذِرْ﴾) هم عن الشرك وادعهم إلى التوحيد، وهذه أول آية أرسل بها، وأول أمر طرق سمعه في حال إرساله، وذلك أنه لما رأى الملك الذي جاءه بحراء حين أنزل عليه ﴿ٱقْرَأْ﴾ رعب منه

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٣) ١/ ٥٣ من حديث أبي مالك عن أبيه رضي الله عنه.

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

فنزل إلى أهله فقال: دثروني فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾» متفق عليه[1]، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ النبوة.

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾) أي: عظم ربك عما يقول عبدة الأوثان.

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾) أي: نفسك طهرها عن الذنوب، كنى عن النفس بالثوب؛ لأنها تشتمل عليه.

(﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾) أي: اترك الأوثان ولا تقربها، والرجز: القذر مثل الرجس قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

(﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾) أي: لا تعط مالك مصانعة لتعط أكثر منه، أو لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، أو لا يكثر عملك في عينك، أو لا تضعف أن تستكثر من الخير.

(﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾) أي: على طاعته وأوامره، أو على ما أوذيت في الله *.

---

(١) صحيح البخاري رقم (٤٦٣٨) ٤/ ١٨٧٤، وصحيح مسلم رقم (١٦١) ١/ ١٤٤ من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما.

ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهر أعمالك عن الشرك،

تفسير دليل الحكمة من بعثته ﷺ

(**ومعنى** ﴿قُمْ﴾) أي: بجد ونشاط، (﴿فَأَنذِرْ﴾) أي: أمة محمد ﷺ.

(**ينذر**) الناس (**عن الشرك**) بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود؛ لأن الشرك أعظم ذنب عصي الله به، سئل النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» متفق عليه[1]، ولا يرفع معه عمل قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وصاحبه مخلد في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

ومع إنذاره عن الشرك (**يدعو إلى التوحيد**)، لأن التوحيد أوجب الواجبات، وأول دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فشمَّر ﷺ عن ساق العزم، وأنذر الناس وأوذي على ذلك هو ومن اتبعه.

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي**): معناها (**عظمه بالتوحيد**) فهو: الإله الحق المستحق أن يعبد وحده، لا يشرك معه أحد في عبادته، فعظم ربك بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك أن يعظم العباد ربهم ويقوموا بعبادته، فإنه ما عُظِّم الربّ بشيء أجلّ من ذلك، ونزهه عما يقوله عبدة الأوثان.

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **أي:**) معناها (**طهر أعمالك عن الشرك**) واجعلها كلها خالصة لوجه الله، فالعمل يسمى لباساً قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ وتطهير الملابس غير مرادٍ في هذه الآية؛ لأن الصلاة لم تفرض في ذلك الوقت، فالمراد هنا الأعمال أي: طهر نفسك من الذنوب وأعظمُها الشرك، قال ابن

(١) صحيح البخاري رقم (٤٢٠٧) ٤/ ١٦٢٦، وصحيح مسلم رقم (٨٦) ١/ ٩٠ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ **الرجز: الأصنام، وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها.**

القيم ـ رحمه الله ـ: «وهو قول المحققين من أهل التفسير، وهو أصح الأقوال»(١)، وقيل: أصلح عملك لا يخالطه شيء من الشرك.

(﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾)، و**(الرجز)** هي: **(الأصنام)** والأوثان التي عبدت من دون الله.

(و) معنى **(هجرها)** أي: **(تركها)** والإعراض عنها **(والبراءة منها و)** من **(أهلها)**، فالنبي ﷺ أمر بترك الأوثان والبعد عنها، والتبرؤ منها ومن أهلها، وهذا نهج الأنبياء والمرسلين قال تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

فلا يتم توحيد العبد حتى يتبرأ من الكفر وأهل الكفر ويبعد عنهم وينابذهم، قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾، وقال عزَّ وجل: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فهذه الأمة أمرت بالتأسي بإبراهيم عليه السلام وأتباعه الذين كانوا معه في تبرئهم من المشركين *.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٠.

أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عرج به إلى السماء،

زمن دعوته ﷺ للتوحيد

وقد (**أخذ**) النبي ﷺ (**على هذا**) النهج في بيان الشرك، والإنذار عنه، والتحذير منه، وبيان التوحيد، والدعوة إليه، (**عشر سنين**) وهو (**يدعو إلى التوحيد**) وينذر عن الشرك، قبل فرض الصلاة التي هي عماد الدين، وقبل بقية الشرائع.

وبهذا يتبين لك أن حقيقة ما بعث به النبي ﷺ ودعت إليه الرسل كلهم، هو الإنذار عن الشرك والتحذير منه، والدعوة إلى التوحيد وبيانه وتوضيحه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، وأخبر الله عن نوح وهودٍ وصالح وشعيب عليهم السلام أن أول شيء بدؤوا به أقوامهم أن قالوا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾، وخاتمهم محمد ﷺ أول شيء دعاهم إليه قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» رواه أحمد[١].

فالنبي ﷺ إنما بعث بالدعوة إلى التوحيد، وذلك لأنه هو أساس الملة الذي تبنى عليه، وبدونه لا ينبني شيء من الأعمال.

فالتوحيد هو الأصل، وبقية شرائع الدين فرع عنه، فإذا زال الأصل زال الفرع، فكونه أخذ عشر سنين يدعو إلى التوحيد وينذر عن الشرك قبل أن تفرض عليه الفرائض، يدل على أن التوحيد أوجب الواجبات، ومعرفته أفرض الفرائض.

الإسراء والمعراج

(**وبعد**) السنوات (**العشر**) من بدء النبوة والرسالة وهو في مكة (**عرج به إلى السماء**) السابعة، فأسري بجسده وروحه جميعاً من المسجد الحرام على

---

(١) المسند رقم (١٦٠٦٦) ٣/ ٤٩٢ من حديث ربيعة بن عباد الديلي.

وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أُمر بالهجرة إلى المدينة،

البراق[1]، إلى بيت المقدس يقظةً لا مناماً، كما أخبر الله عنه في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، ثم صعد به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء على المعراج، كلما مر بسماء تلقاه مقربوها، حتى جاوزهم إلى سدرة المنتهى، حتى سمع صريف الأقلام، فبلغ من الارتفاع والعلو إلى ما الله به عليم، وكلمه الله بلا واسطة، فأوحى إليه ما أوحى.

أين فرضت الصلاة؟

(وفرضت عليه الصلوات الخمس) وهو في السماء، وكان أول ما فرضت خمسين صلاة، ولم يزل يتردد بين موسى وبين ربه حتى وضعها إلى خمس وقال: «هي خمس ـ أي: في العدد ـ وهي خمسون ـ أي: في الأجر ـ الحسنة بعشر أمثالها» متفق عليه[2]، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط الأنبياء معه، وأمَّهم في بيت المقدس، ثم ركب البراق ورجع إلى مكة من ليلته، وحدثهم عما رآه في مسيره.

(وصلى في مكة) الصلوات الخمس المفروضة **(ثلاث سنين)** بعد أن عرج به وفرضت عليه قبل الهجرة.

المدة التي صلاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة

(وبعدها) أي: بعد الثلاث عشرة سنة من بعثته **(أُمر بالهجرة)** من مكة **(إلى المدينة)** بمفارقة المشركين وأوطانهم، بحيث يتمكن من إظهار دينه، والدعوة إلى الله، فإن ذلك واجب وفرض، لأن أهل مكة منعوه أن يقيم دعوته، فاستقبله الأنصار في المدينة، وآووه ونصروه وآزروه، حتى بلَّغ دين ربه فانتشر في الآفاق *.

---

(١) البراق: دابة دون البغل وفوق الحمار، مشتق من البرق سمي بذلك لنصوع لونه وشدة بريقه، وقيل: لسرعة حركته. لسان العرب ١٠/ ١٥.

(٢) صحيح البخاري رقم (٣٤٢) ١/ ١٣٦، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحيح مسلم رقم (١٦٢) ١/ ١٤٥ ـ ١٤٨ من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام،

تعريف الهجرة

(و) تعريف **(الهجرة)** هي **(الانتقال)** والتحول **(من بلد الشرك إلى بلد الإسلام)** وكل من فارق بلده فهو مهاجر، والمهاجرة في الأصل مصارمة الغير ومقاطعته ومباعدته، وسمي المهاجرون مهاجرين، لأنهم هجروا ديارهم ومساكنهم التي نشئوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم فيها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة.

وشرعت الهجرة: حفظاً لدين العبد من الزوال، أو النقصان، وفراراً به من الفتن، ولخشية عدم إظهار شعائر الإسلام، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله»[(١)].

حكمها

والمرء يتأثر بمجتمعه في صلاحه وتقواه وفي بعده عن ربه ومولاه، **(و)** لهذا كانت **(الهجرة فريضة على هذه الأمة)** المحمدية **(من بلد الشرك)** والكفر **(إلى بلد الإسلام)** وقد حكي الإجماع على وجوبها، وقد فرضها الله على رسوله ﷺ وعلى الصحابة قبل فرض الصوم والحج، وقد جاء الوعيد على من تركها وهو قادر على ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: لا تراءى ناراهما» رواه أبو داود والترمذي[(٢)].

ومخالطة المشركين ضرر على الدين، وإذا كان المسلم في بلد لا يقدر على إظهار دينه والتصريح به وتبيينه، وجب عليه مفارقة ذلك الوطن لإظهار دينه، وليصون معتقده، فالقرب منهم في المسكن ونحوه يضر بدينه، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود

---

(١) الفتاوى ١/ ٩٤.

(٢) سنن أبي داود رقم (٢٦٤٥) ٣/ ٤٥، وسنن الترمذي رقم (١٦٠٤) ٤/ ١٥٥ من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

....

والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام»[1].

والهجرة فيها منافع دينية ودنيوية للمهاجر، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ حفيد المصنف ـ رحمهما الله: «الهجرة الغالب على أهلها السلامة والعز والتمكين، كما جرى ذلك لرسول الله ﷺ وأتباعه سلفاً وخلفاً، ومصالح الهجرة في الدنيا أكثر من أن تحصر كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾»[2].

وفي ترك الهجرة أضرار على تاركها في دينه ودنياه، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ: «المفاسد التي في ترك الجهاد، موجودة في ترك الهجرة وأكثر منها، كما لا يخفى على ذوي البصائر والفهم، وكان الجهاد من ثمرتها ومصالحها، وتأمل ما وقع فيه التاركون للهجرة من سوء الحال في الدين والدنيا»[3] *.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٢٠.

(٢) الدرر السنية ٨/ ٢٤٠.

(٣) الدرر السنية ٨/ ٢٤٤.

وهي باقية إلى أن تقوم الساعة، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

ومن له قدرة على الهجرة من ديار الشرك ولم يهاجر فقد ظلم نفسه ووقع في الإثم.

استمرارها إلى قيام الساعة

(وهي) أي: الهجرة **(باقية)** وواجبة **(إلى أن تقوم الساعة)** فلا تسقط في أيِّ زمن عن هذه الأمة بل وجوبها باقٍ إلى قيام الساعة، فمن كان مسكنه بديار المشركين وهو قادر على التحول عنهم، وجب عليه الهجرة من تلك الديار.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «أحوال البلاد كأحوال العباد، فيكون الرجل تارة مسلماً، وتارة كافراً، وتارة مؤمناً، وتارة منافقاً، وتارة براً تقياً، وتارة فاسقاً، وتارة فاجراً شقياً، وهكذا المساكن بحسب سكانها، فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة، كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باقٍ إلى يوم القيامة»[1].

دليل وجوبها من القرآن

(والدليل) على وجوب الهجرة من القرآن **(قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾**)**، وقد نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا فقال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أراد ملك الموت وأعوانه الموكلين بنزع الروح، وحال من تنزع أرواحهم أنهم من ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة من ديار الشرك.

(﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾) أي: في أيِّ فريق كنتم ولم مكثتم ههنا وتركتم الهجرة؟ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع.

(﴿قَالُوٓا۟﴾) ـ أي: الذين تركوا الهجرة ـ: (﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾) أي: كنا عاجزين عن الهجرة لا نقدر على الخروج من البلد ولا الذهاب في الأرض، وهم غير صادقين في ذلك.

---

(١) الفتاوى ١٨/ ٢٨٤.

قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾
إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾
فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا

(﴿قَالُوٓاْ﴾) أي: قالت لهم الملائكة معاتبة لهم: (﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾)، وهذا استفهام تقرير أي: قد تقرر عند كلِّ أحدٍ أن أرض الله واسعة، فلم لا تهاجرون إلى المدينة وتخرجون من بين أهل الشرك؟، فلم يعذروا بترك الهجرة.

فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعاً وفسحة في الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾) أي: بئس المصير إلى جهنم، وهذا فيه أن تارك الهجرة بعد ما وجبت عليه وهو قادر عليها، أنه مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

(﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾) أي: الضعفاء العاجزين عن الهجرة.

(﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾) جمع وليد ووليدة، والوليد: الغلام قبل أن يحتلم.

(﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾) أي: لا يستطيعون مفارقة المشركين، فلا يقدرون على حيلة، ولا على نفقة، ولا على قوة للخروج.

(﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾) أي: لا يعرفون الطريق إلى الخروج من مكة إلى المدينة، حيث كانت بلد الإسلام، ولا يوجد آنذاك بلد إسلامٍ سواها.

(﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾) يتجاوز عن المستضعفين وأهل الأعذار بترك الهجرة.

(﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾) متصفاً بالعفو والتجاوز عن السيئات.

غَفُورًا﴾ .

(﴿غَفُورًا﴾) للخطايا والأوزار .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية»(١) * .

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٣.

حكم السفر للخارج

وإذا كانت الهجرة مأموراً بها من بلاد الكفر، دل هذا على تحريم السفر إلى بلادهم، إلا لحاجة تدعو إلى ذلك كعلاج ونحوه، ولا يجوز السفر إليهم عند الحاجة إلا بثلاثة شروط:

١ ـ أن يكون عنده علم، يمنعه مما يرد عليه من الشبهات.

٢ ـ أن يكون عنده دين، يمنعه من الشهوات.

٣ ـ أن يتمكن من إظهار دينه والقيام بعبادة ربه كما أمر الله، وأن يحذر كل الحذر من موالاة المشركين.

وإذا لم يتمكن المسلم من الهجرة، فعليه أن يظهر شعائر دينه، من الصلاة ونحوها، بقدر استطاعته، ويجب عليه أن يدعو غير المسلمين إلى هذا الدين قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

دليل آخر من القرآن على وجوب الهجرة

(و) دليل آخر من القرآن على أن الهجرة واجبة على القادر عليها **(قوله تعالى**: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ﴾) وحدوني، و(﴿ءَامَنُوٓاْ﴾) بي وبرسولي، وهم مقيمون في ديار الكفر ولم يهاجروا وهم قادرون على الهجرة هاجروا فـ (﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾) لم تضق عليكم فتقيموا بموضع منها لا يحل لكم المقام فيه، فإذا عمل بمكان منها بمعاصي الله ولم تقدروا على تغييره، فاهربوا منه إلى أرضي الواسعة التي تسع جميع الخلائق.

فإذا كان الإنسان في أرض لم يتمكن من إظهار دينه فيها، فإن الله قد وسع له الأرض ليعبده فيها كما أمر، وأن يوحده في أرضه الواسعة، وكذلك يجب على كل من كان ببلد تعمل فيها المعاصي ولا يمكنه تغييرها أن يهاجر منها.

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾، قال البغوي ـ رحمه الله ـ: «سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا ناداهم الله باسم الإيمان». والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة

(﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾) أي: أظهروا لي العبادة في أرضي الواسعة التي خلقتها وما عليها لكم، وخلقتكم عليها لعبادتي.

(قال) أبو محمد الحسين بن مسعود **(البغوي ـ رحمه الله ـ)**[١] في تفسيره[٢] الذي قال عنه ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «اجتمعت الأمة على تلقي تفسيره بالقبول، وقراءته على رؤوس الأشهاد من غير نكير»[٣]:

(سبب نزول هذه الآية) كما قال مقاتل والكلبي: نزلت **(في)** ضعفاء **(المسلمين الذين)** أقاموا **(بمكة)** و**(لم يهاجروا)** منها إلى المدينة **(ناداهم الله باسم الإيمان)**[٤]، فأفاد أن تارك الهجرة بعد ما وجبت عليه ليس بكافر، لكنه عاصٍ بتركها، فهو مؤمنٌ ناقص الإيمان عاصٍ من عصاة الموحدين المؤمنين.

دليل وجوب الهجرة من السنة

(والدليل على) أن **(الهجرة)** مفروضة على هذه الأمة، وأنها باقية إلى قيام الساعة، دليل ذلك **(من السنة قوله ﷺ)** في الحديث الذي رواه أبو داود عن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[٥].

(لا تنقطع) أي: لا يسقط وجوب **(الهجرة)** من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

---

(١) المتوفى عام ٥١٦ هـ.

(٢) المسمى (معالم التنزيل).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٢٣٩.

(٤) قال البغوي في تفسيره ٣/ ٤٧٢ عند قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة إن أرضي يعني المدينة واسعة آمنة.

(٥) سنن أبي داود رقم (٢٤٧٩) ٣/ ٣

حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

(حتى تنقطع التوبة) أي: حتى لا تقبل التوبة ممن تاب.

فدل الحديث على أن التوبة ما دامت مقبولة فالهجرة واجبة بحالها، وأما قول النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» متفق عليه[1]، فالمراد لا هجرة بعد فتح مكة منها إلى المدينة، حيث كانت مكة بعد فتحها بلد إسلام، وقد كانت الهجرة من مكة مأموراً بها لما كانت بلد كفر، أَمَا وقد كانت بلد إسلامٍ فلا.

(ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تقبل التوبة قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ فدل على أنها تقبل قبل طلوع الشمس من مغربها، وإذا كانت التوبة تقبل، فإن الهجرة لا تنقطع.

فواجب على المسلم أن يسعى لإصلاح نفسه بالصحبة الصالحة، وبالمجتمع الطيب، وأن يقرأ ما ينفعه في أمور دينه، وعليه أن يبتعد عن كل ما يدنس صلاحه من مجتمع لا يحثه على فعل الطاعات، أو وسائل تغرقه بالشبهات والشهوات، أو تؤزه إلى فعل المعاصي والسيئات *.

---

(١) البخاري رقم (٢٦٣١) ٣/ ١٠٢٥، ومسلم رقم (١٣٥٣) ٣/ ١٤٨٧من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فلما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام، مثل: الزكاة والصوم والحج والأذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شرائع الإسلام، أخذ على هذا عشر سنين،

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً وهو يدعو إلى التوحيد وينذر عن الشرك، ومكث تلك السنين لبيان التوحيد، والنهي عن ضده لأهميته، ثم بعد تلك المدة هاجر من مكة إلى المدينة.

(**فلما استقر بالمدينة**) وانتشر التوحيد، وكثر أتباعه، وأقاموا الصلاة التي فرضت عليه وعليهم جماعة قبل هجرته بثلاث سنوات.

متى شرعت بقية الشرائع؟

(**أُمر ببقية شرائع الإسلام**) التي تعبد الله بها خلقه، إذ عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة.

(**مثل: الزكاة**) المفروضة بتفصيلها المعلوم.

(**والصوم**) المفروض في شهر رمضان.

(**والحج**) إلى بيت الله الحرام.

(**والأذان**) للصلوات الخمس المكتوبة.

(**والجهاد**) في سبيل الله.

(**والأمر بالمعروف**) الذي عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

(**والنهي عن المنكر**) الذي عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

(**وغير ذلك من شرائع**) وأحكام (**الإسلام**) كصلاة العيدين، والكسوف، والاستسقاء.

مدة دعوته ﷺ لها

وقد (**أخذ على هذا**) البيان والتعليم، والدعوة إلى بقية الشرائع (**عشر سنين**) كلها توحى إليه فيها الشرائع، فتمت شريعة الله صدقاً وعدلاً كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

متى توفي ﷺ؟

(وبعدها) أي: بعد ما أكمل الله به الدين وبلغ البلاغ المبين **(توفي صلاة الله وسلامه عليه)** في السنة الحادية عشرة، وقد بيّن كل شيء فيه سعادة العباد في الدنيا والآخرة، أتم بيانٍ وأوضحه، قال أبو ذر رضي الله عنه: «ما ترك النبي ﷺ طائراً يقلب جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علماً» رواه أحمد[(١)]، وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه: «لقد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة[(٢)] قال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم» رواه مسلم[(٣)].

وحفظ الله دينه **(ودينه باقٍ)** وهو ما تضمنه الكتاب والسُّنَّة موجود مؤيد محفوظ إلى يوم القيامة، كاف لمن تمسك به، قال عليه الصلاة والسلام: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي» رواه الحاكم في المستدرك[(٤)].

ما جاء به الدين

(وهذا دينه) الذي ترك أمته عليه، وتكفل الله بحفظه، توارثه المسلمون وأهل العلم والدين خلفاً عن سلف، قال بعض السلف: «هذا عهد نبينا ﷺ إلينا وقد عهدنا إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا، وهي وصيته وفرضه عليكم»[(٥)]، فجرى الخلف على منهاج السلف، واقتفوا آثارهم، ولا يزالون إلى يوم القيامة، فدينه عظيم مهيمن على جميع الأديان، فيه أعمال يسيرة وأجورها عند الله عظيمة.

(١) المسند رقم (٢١٣٩٩) ٥/ ١٦٣.

(٢) الخراءة ـ بكسر الخاء وفتحها ـ: هي آداب التخلي والقعود عند الحاجة.
النهاية لابن الأثير ٢/ ١٧، لسان العرب ١/ ٦٤.

(٣) رقم (٢٦٢) ١/ ٢٢٣.

(٤) المستدرك رقم (٣١٩) ١/ ١٧٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) إعلام الموقعين لابن القيم ١/ ٦.

لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه.

والخير الذي دل عليه التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذر منه الشرك

و(**لا خير إلا دل**) النبي ﷺ (**الأمة عليه**) وأرشدها إليه، قال الله في الثناء عليه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الأعمال والأقوال والأخلاق الطيبة من هديه ﷺ.

(**ولا شر**) من الأقوال والأفعال (**إلا حذرها منه**) خوفاً على أمته من الوقوع في المهالك، وقد بلَّغ الدين كله، وبيَّنه جميعه كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وفي الحديث: «لم يكن نبي قبلي، إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم» رواه مسلم[1].

الخير الذي جاء به النبي ﷺ

(**والخير الذي دل**) النبي ﷺ أمته (**عليه**) هو: (**التوحيد**) وهو أصل كل خير وأعظمه، وهو توحيد الله الذي هو أوجب الواجبات، وأساس قبول الأعمال، ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب.

(**و**) قد دلنا النبي ﷺ على (**جميع ما يحبه الله ويرضاه**) من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وقد أوذي النبي ﷺ وصبر حتى بلغ لنا هذا الخير العظيم، قياماً بأمر الله ونصحاً لنا وشفقةً علينا.

الشر الذي حذر منه

(**والشر**) الذي هو أصل كلِّ شرٍّ وأعظمه و(**الذي حذر منه**) أمته وأنذرها منه هو: (**الشرك**) الذي هو أعظم الذنوب عند الله، يحبط جميع الأعمال، وصاحبه مخلد في النار، وجميع الرسل حذروا أممهم من الشرك، ودعوهم

---

(١) صحيح مسلم رقم (١٨٤٤) ٣/ ١٤٢٧ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وجميع ما يكرهه الله ويأباه.

إلى التوحيد قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

(و) حذرنا عليه الصلاة والسلام أيضاً من **(جميع ما يكرهه الله)** ويبغضه **(ويأباه)** أي: ينهى عنه من الأقوال والأعمال *.

بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض الله طاعته على جميع الثقلين: الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

عموم بعثة النبي ﷺ إلى الناس كافة

وقد كانت الأنبياء تبعث إلى أقوامها خاصة، أما نبينا محمد ﷺ فقد **(بعثه الله)** عزَّ وجل **(إلى الناس كافة)** عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدهم.

(وافترض الله طاعته) أي: جعل طاعته فرضاً **(على جميع الثقلين)** وهما **(الجن والإنس)** قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقالت الجن: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فرسالته شاملة الجن والإنس.

الدليل على ذلك

(والدليل) على أنه مبعوث إلى الناس كافة **(قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾)** العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم.

(﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾) يجب عليكم اتباعي، قال عليه الصلاة والسلام: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة» متفق عليه(١)، وكونه خاتم النبيين ورسالته إلى الناس كافة يدل على عظيم شرفه.

فواجب على جميع أهل الأديان من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، اتباع دين نبينا محمد ﷺ، وهذا معلوم من دين الإسلام بالضرورة، وهذا مقتضى رسالته، ومن لم يتبع دينه، كتب عليه الشقاء وكان من أصحاب النار، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٢٨) ١/ ١٢٨، ورقم (٤٢٧) ١/ ١٦٨، وصحيح مسلم رقم (٥٢١) ١/ ٣٧٠ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

....

يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم[1]، ومن أطاعه وامتثل أمره فقد رحمه ربه، وكان من أصحاب النعيم قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، ومن اتبع ما سواه من الأديان فدينه باطل، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ *.

(١) صحيح مسلم رقم (١٥٣) ١/ ١٣٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كمال الدين

(وأكمل الله به) أي: بنبينا محمد ﷺ أحكام وشرائع (الدين) فكان بفضل الله ديناً كاملاً، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، فأينما نظرت إلى شيء منه وجدت الكمال والخير فيه، وما توفي عليه الصلاة والسلام إلا وقد بلَّغ جميع ما أمره الله به.

(والدليل) على أن هذا الدين كامل في شرعه وأحكامه (قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾) أي: يوم عرفة والنبي ﷺ واقف يخطب في حجة الوداع قبل وفاته بواحد وثمانين يوماً(١).

(﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾) وهذه أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل لها دينها، فلا يحتاجون إلى دين سواه، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ فمن ادعى أنه يحتاج إلى زيادة فقد كذب وافترى، ورد مدلول هذه الآية، ورد مدلول قوله ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» رواه أبو داود(٢). والكامل لا يزاد فيه ولا ينقص منه، ولا يبدل، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «قد تمم الله سبحانه الدين بنبيه ﷺ وأكمله به، ولم يحوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه، ولا رأي، ولا منام، ولا كشوف»(٣).

(١) عند من يقول: إنه ﷺ توفي في ثاني ربيع أول، وهو قول سليمان التيمي والكلبي وخليفة بن خياط، وغيرهم، ورجحه السهيلي، قال ابن حجر في الفتح ٨/ ١٣٠: «وهو القول المعتمد».
وقيل: إن النبي ﷺ توفي في اليوم الأول من ربيع الأول، وهو قول الليث وابن شهاب والفضل بن دكين، وغيرهم.
وقيل: إن النبي ﷺ توفي في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق والواقدي وأبو بكر بن حزم، وغيرهم، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٢٥٥: «وهو القول المشهور».

(٢) رقم (٤٦٠٧) ٤/ ٢٠٠ من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) الصواعق المرسلة ٣/ ٨٢٦.

﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ .

تمام النعمة

ولما أخبر الله أنه أكمل لنا الدين وهو أكبر نعمة علينا قال: (﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾) الظاهرة والباطنة، ومن تمت عليه النعمة فقد أفلح كل الفلاح، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب، ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار، وفي دار القرار»[(١)] .

(﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾) أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه ورضيه، وبعث به أفضل رسله ﷺ، وأنزل به أشرف كتبه، قال كعب: «لو نزلت هذه الآية على غير هذه الأمة، لاتخذوا اليوم الذي نزلت فيه عيداً[(٢)]، قال عمر رضي الله عنه: نزلت يوم الجمعة يوم عرفة» رواه البخاري[(٣)] .

عمل مردود

ولكمال هذا الدين وتمامه أخبر النبي ﷺ أن كل من فعل ما لم يأمر به، وزاد في دين الله ما لم يأت به الشرع، فإن عمله باطل ومردود عليه، لكمال هذا الدين، قال عليه الصلاة والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه[(٤)] .

فليفرح المسلم بهذا الدين، وليتمسك به، فهو دين كامل شامل، يتمنى

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١٥.

(٢) ولأنه لا يجوز إحداث عيدٍ في الإسلام، ولم يشرع لنا غير عيدي الأضحى والفطر لذا لم تتخذ هذه الأمة اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية عيداً.

(٣) صحيح البخاري رقم (٦٨٤٠) ٦/ ٢٦٥٣.

(٤) صحيح البخاري رقم (٢٥٥٠)٢/ ٩٥٩، وصحيح مسلم رقم (١٧١٨) ٣/ ١٣٤٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

أهل الأديان كلهم عند الموت وما بعده من أحوال الآخرة أن يكونوا من أتباعه، قال سبحانه ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾، ولكن لم يُرد الله لهم الهداية، لحكمة منه بالغة قال سبحانه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ *.

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾،

نبينا ﷺ قد مات

والله سبحانه متصف بالحياة الدائمة، قال جلَّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، ونبينا محمد ﷺ بشر من البشر، وواحد من المخلوقين، يعتريه ما يعتريهم من الجوع والحزن والمرض والموت، والنبي ﷺ لا نرفعه فوق منزلته، ولا نهضمه حقه، فهو بشر فضله الله بالرسالة، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، لا في حياته ولا بعد مماته، وبعد عمر مبارك في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، والكفاح والدعوة والصبر، توفاه الله عزَّ وجل بعد ثلاث وستين سنة، ولم يتوف الله نبيه ﷺ حتى أكمل الله به الدين، وبلَّغ البلاغ المبين، حتى قال ﷺ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء»، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: صدق والله رسول الله ﷺ تركنا والله على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء» رواه ابن ماجه(1).

(**والدليل على موته** ﷺ) من القرآن (**قوله تعالى:** ﴿إِنَّكَ﴾) يا أيها الرسول (﴿مَيِّتٌ﴾)، وقد مات وغُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ودُفن ﷺ بالمدينة سنة ١١هـ.

(﴿وَإِنَّهُم﴾) أي: جميع الخلق (﴿مَّيِّتُونَ﴾) مثلك، فالجميع سيموت حتماً.

(﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾) في أرض المحشر (﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾) فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلاًّ بعمله، والموت يجري على الأنبياء وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ *.

---

(١) سنن ابن ماجه رقم (٥) ١/ ٤ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

والناس إذا ماتوا يبعثون، والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، **وقوله تعالى:** ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

البعث بعد الموت

(والناس إذا ماتوا يبعثون)، ليجازى كلاً بعمله، وليقتص بعضهم من بعض حتى البهائم.

والإيمان بالبعث والنشور من القبور، من جملة الإيمان باليوم الآخر، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بالبعث، بل الإيمان بالبعث هو معظم الإيمان باليوم الآخر، وهو الذي كان ينكره أهل الجاهلية.

(والدليل) على أن الناس يبعثون بعد الموت **(قوله تعالى:** ﴿مِنْهَا﴾) أي: من الأرض.

(﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾) أي: مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض.

(﴿وَفِيهَا﴾) أي: في الأرض (﴿نُعِيدُكُمْ﴾) إذا متم تصيرون إليها فتدفنون بها.

(﴿وَمِنْهَا﴾) أي: من الأرض (﴿نُخْرِجُكُمْ﴾) يوم البعث والحساب (﴿تَارَةً﴾) أي: مرة (﴿أُخْرَىٰ﴾) كقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

(و) دليل آخر على أن الناس يبعثون بعد موتهم **(قوله تعالى:** ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾)، أراد تعالى مبدأ خلق آدم وذريته من الأرض.

(﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾) أي: في الأرض إذا متم.

(﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾) من الأرض بعد البعث أحياءً، ويعيدكم يوم القيامة كما بدأكم أول مرة.

وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

الحساب على الأعمال

(**و**) الخلق (**بعد البعث**) وقيامهم من قبورهم، (**محاسبون**) على دقيق الأعمال وجليلها، صغيرها وكبيرها كما قال سبحانه: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وكل شيء مكتوب في كتاب ينشر في الحشر قال عزَّ وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، والميزان في الحشر ميزان حق وعدل، قال جلَّ وعلا: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ﴾.

(**و**) بعد هذا الحساب فإن جميع الخلق (**مجزيون بأعمالهم**) إن كانت خيراً فخير، وإن كانت شراً فشر قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

(**والدليل**) على أن الخلق يبعثون بعد موتهم، ويحاسبون على أعمالهم (**قوله تعالى**):

(﴿لِيَجْزِيَ﴾) أي: سيجازي الله (﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾) العمل من الشرك فما دونه، يجازيهم (﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾) من إساءة.

(﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾) في عبادة ربهم ووحدوه، وأحسنوا إلى خلقه، وأخلصوا له الأعمال، سوف يثيبهم على أعمالهم (﴿بِٱلْحُسْنَى﴾) وهي: الجنة، بل ولهم الزيادة وهي النظر إلى وجهه الكريم كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾، وقد فسر النبي ﷺ تلك الزيادة «بالنظر إلى وجه الله الكريم» رواه مسلم(١).

---

(١) صحيح مسلم رقم (١٨١) ١/ ٤٨٩ من حديث صهيب رضي الله عنه.

....

ومن حكمة الله في بعث الناس ومحاسبتهم، أنه لو لم يكن هناك جزاء ولا حساب، لَظَلَم الناسُ بعضهم بعضاً، ولسَلَبَ بعضهم مال بعض، ولعمَّت الفوضى في الحياة، والذي يحجز الناس عن البغي والمعاصي هو تذكر الحساب والعقاب، ولمَّا غفل الكفار عن الحساب تمادوا في الكفر والطغيان، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ *.

ومن كذب بالبعث كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

كفر من كذب بالبعث

وشأن البعث عند الله عظيم، فهو من أركان الإيمان (**ومن كذب بالبعث كفر**)؛ لتكذيبه الله ورسوله وإجماع المسلمين.

(**والدليل**) على كفر من أنكر البعث (**قوله تعالى**: ﴿زَعَمَ﴾) أي: ادَّعى وظن (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾) ضلالاً منهم (﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾) للحساب والجزاء، وقد حكم الله بكفرهم، لإنكارهم البعث، فدل على أن إنكار البعث كفر، بل هو من أعظم كفر أهل الجاهلية، لهذا قال لنبيه ﷺ يا أيها الرسول: (﴿قُلۡ﴾) لمنكري البعث: (﴿بَلَىٰ﴾) ستبعثون، واحلف لهم يا محمد يميناً بالله، قائلاً فيها: (﴿وَرَبِّي﴾) وخالقي (﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾) يوم القيامة للحساب.

(﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾) وتجازون عليها.

(﴿وَذَٰلِكَ﴾) أي: البعث بعد الموت (﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾) سهل لا يعجزه، فهو سبحانه على كلِّ شيءٍ قديرٍ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ والذي قَدِرَ على النشأة الأولى، قادر على إنشاء الإنسان مرة أخرى، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾.

فإذا كان الإنسان معدوماً لم يوجد، ثم أوجده الله تعالى حين خلق آدم من طينٍ، وذراريه من ماءٍ مهينٍ، ثم جعل هذا التناسل منه، فإنه لا يعجزه أن يعيدهم وهو الذي أبدعهم قال النبي ﷺ: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد» رواه البخاري[١] *.

---

(١) رقم (٤٦٩٠) ٤/١٩٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، وأولهم نوح عليه السلام

وظيفة الرسل

(وأرسل الله جميع الرسل) من أولهم إلى آخرهم، كلهم يدعون إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه.

(مبشرين) مَنْ وحد الله بالجنة.

(ومنذرين) ومحذرين مَنْ أشرك بالله بالخلود في النار.

(والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا﴾) أرسلناهم إلى الناس (﴿مُّبَشِّرِينَ﴾) من أطاعهم بالجنة، وأعلى الطاعات هي التوحيد.

(﴿وَمُنذِرِينَ﴾) من عصاهم من المشركين والعصاة من النار، وأعظم الذنوب والعصيان هو الشرك، فلم يَدَع الرب خلقه يهيمون في حيرة يبحثون عن الحق، بل أرسل إليهم من يدلهم عليه، ولم يطالبهم بسوى الاتباع، وقد لقي الأنبياء والرسل في سبيل دعوة الناس الابتلاء والإيذاء، فصبروا حتى بلغوا رسالة ربهم.

(﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾) أي: قطعاً لحجج الناس يوم القيامة، لئلا يقولوا: ما أرسلت إلينا رسولاً، وما أنزلت إلينا كتاباً، فانقطعت حجة الخلق على الله بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإقامة الحجج عليهم، وتبيين الحقّ لهم، وركز الفطر في قلوبهم، ولم يبق للمعتذر عذر لأن الله أرسل الرسل تترى، رسول يخلف رسولاً، يبينون للناس أمر دينهم ومراضي ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فقد سلك طريق الشقاء.

أول الرسل وآخرهم

(وأولهم) أي: أول الرسل (**نوح** عليه السلام)، وكان بين نوح وبين آدم عشرة قرون، كلهم على الإسلام، فلما حدث الشرك بسبب الغلو في الصالحين أرسل الله إليهم نوحاً، وهو أول رسول إلى أهل الأرض.

وآخرهم محمد ﷺ، والدليل على أن أولهم نوح عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾.

(**وآخرهم محمد** ﷺ) ثبت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، والدليل على أن آخرهم محمد ﷺ من الكتاب قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾، ومن السُّنَّة قوله ﷺ: «إنه لا نبي بعدي» متفق عليه[1].

(**والدليل على أن أولهم نوح** عليه السلام) من القرآن (**قوله تعالى**: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾) يا أيها النبي محمد (﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ﴾) أول الرسل (﴿نُوحٖ﴾) عليه السلام، (﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾) أي: من بعد نوحٍ، فهو أوَّل رسولٍ، وأول نذيرٍ عن الشرك، والدليل من السنة على أن أولهم نوح، ما ورد في حديث الشفاعة، أن الناس يأتون إلى آدم فيقول: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» متفق عليه[2].

وأما عدد الأنبياء فقال أبو ذر رضي الله عنه: «قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير» رواه ابن حبان[3]، منهم من قص الله علينا أمره، ومنهم من لم يقصص علينا أمره، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾، فأقام الله تعالى الحجة، بإرسال الرسل وإنزال الكتب *.

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٢٦٨) ٣/ ١٢٧٣، وصحيح مسلم رقم (١٨٤٢) ٣/ ١٤٧١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري رقم (٣١٦٢) ٣/ ١٢١٥، وصحيح مسلم رقم (١٩٤) ٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح ابن حبان رقم (٣٦١) ٢/ ٧٦ ـ ٧٩ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وكلُّ أمةٍ بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

ما هي دعوة جميع الرسل؟

(وكلُّ أمةٍ) أي: جماعة **(بعث الله إليها رسولاً)** يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم من الشرك.

بدءاً **(من نوح)** عليه السلام، وهو أول رسول إلى أهل الأرض.

(إلى محمد) صلى الله عليه وسلم وهوآخر الرسل وخاتمهم وأفضلهم وأكثرهم تابعاً.

وما من أمة من الأمم إلا وقد بعث الله فيهم رسولاً إقامة منه تعالى للحجة على عباده، وإيضاحاً للمحجة، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

(يأمرهم بعبادة الله وحده) فكل نبيٍّ يدعو قومه إلى هذا، وهو الذي بعثت به جميع الرسل، ودعوتهم كلهم واحدة وهي إفراد الله بالعبادة.

(وينهاهم عن عبادة الطاغوت)، والتبري منها ومن أهلها، فخلاصة جميع رسالات الرسل، هو التوحيد والتحذير من الشرك.

(والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾) وقوم (﴿رَّسُولًا﴾) يأمرهم بتوحيد الله قائلاً لهم: (﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾) وأخلصوا لهُ العبادة.

(﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾) بالكفر به، فأول شيء بدأت به الرسل أقوامهم هو التوحيد، وقد أخبر الله أن أول أمر بدأ به نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الرسل، أن قالوا لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وكما قال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

لماذا الاهتمام بالتوحيد؟

ومعرفتك عظمة التوحيد، تصرف همتك إليه، وإلى معرفته والعمل به

....

غاية جهدك، وإلى معرفة ما يضاده، فيجب على العبد أن يهتم غاية الاهتمام بمعرفة أصل الدين، قبل الواجب من الفروع، كالزكاة والصلاة وغيرذلك، فلا تصح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل، فلا بد من معرفة أصل الدين، ثم معرفة فروعه، وفي حديث معاذ ﵁ لما بعثه ﷺ إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة» متفق عليه[1]، وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به، فلا يدعوهم للصلاة إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام، فإن الصلاة وغيرها من الأعمال لا تنفع بدون التوحيد، فإنه لا يستقيم بناء على غير أساس، ولا فرع على غير أصل، والأصل والأساس هو التوحيد، والصلاة وإن كانت هي عمود الإسلام فمع ذلك لم تفرض إلا بعد الأمر بالتوحيد بنحو عشر سنين.

ومما يبين أن التوحيد هو الأصل، أنه يوجد من يدخل الجنة ولو لم يصل ركعة واحدة، وذلك إذا اعتقد أن الله وحده المستحق للعبادة، وعمل به ومات متمسكاً به، كمن يسلم ثم يقتل شهيداً بعد إسلامه وقبل أن يحين عليه وقت صلاة، يقول البراء بن عازب ﵁: «أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد، فقال: يا رسول الله أقاتل وأسلم؟ قال: أسلم ثم قاتل، فأسلم ثم قاتل فقتل، فقال رسول الله ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً» متفق عليه[2].

الصلاة لا تنفع مع عدم التوحيد

والصلاة لا تنفع وحدها مع عدم التوحيد، وكذا لو زكى وصام، لأن أعماله هباء إذا لم يعرف التوحيد، ويعمل به، ويعتقده في قلبه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، وبذلك يعرف

(١) صحيح البخاري رقم (١٣٩٥) ١/ ٤٣٠، وصحيح مسلم رقم (١٩) ١/ ٥٠.
(٢) صحيح البخاري رقم (٢٦٥٣) ٣/ ١٠٣٤، وصحيح مسلم رقم (١٩٠٠) ٣/ ١٥٠٩.

....

عظم شأن إفراد الله بالعبادة، وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد، والعمل به، وقد دخل الشيطان على من دخل في باب الشرك، من آفة قولهم: يكفي في الإسلام النطق بالشهادتين، ويجب على العبد أن يعلم أن مجرد المعرفة والنطق بها دون العلم بمعناها والعمل بمقتضاها ودون الاحتراز من نواقضها لا تنفع صاحبها.

ومعرفة التوحيد والشرك في الأصل على سبيل الإجمال، سهل هين، من أهون ما يكون وأسهله إجمالاً، ففي زمن بعثة النبي ﷺ كانوا يعرفون التوحيد والشرك، فمن قال لا إله إلا الله، يترك الشرك ويعلم أنه باطل منافٍ لكلمة الإخلاص، ولهذا لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد وقال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» رواه أحمد[1]، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾، وأما حين كثرت الشبهات، صعبت معرفة التوحيد والتخلص من ضده، وكثر النفاق، وصار الكثير يقول الشهادة ويعبد مع الله غيره، لأنه لا يعرف معناها ويظن أن معناها هو عبادة الله فقط، دون الكفر بالطاغوت، أوالتلفظ بها دون تحقيق معناها والعمل بمقتضاها *.

(١) المسند رقم (١٦٠٦٦) ٣/ ٤٩٢، ورقم (١٩٠٢٦) ٤/ ٣٤١ من حديث ربيعة بن عباد الديلي.

وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ».

الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ركنا التوحيد

(وافترض الله) أي: أوجب **(على جميع العباد)** من إنس وجن، وذكر وأنثى، عربي أو عجمي، حر أو عبد، **(الكفر بالطاغوت)** والتبرؤ من الآلهة وأهلها واعتقاد بطلانها وأنها لا تنفع ولا تضر، **(والإيمان بالله)** أي: إفراده بالعبادة وحده دون سواه.

ومن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت، لا يسمى موحداً، ومن كفر بالطاغوت ولم يعبد الله، لا يسمى موحداً، إنما الموحد من جمع بين ركني التوحيد، وهما الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾، فمن كفر بالطاغوت وآمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

تعريف الطاغوت

(قال) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المشهور بـ **(ابن القيم)** الجوزية[1] **(ـ رحمه الله تعالى ـ)** رحمة واسعة، وأسكنه أعلى جناته، قال في تعريف **(الطاغوت)**[2] هو: **(ما تجاوز به العبد حده)** أي: قدْره الذي ينبغي له في الشرع، إذا فعل ذلك صار بخروجه منه وتجاوزه طاغوتاً، سواء كان هذا الطغيان، أو التعدي والتجاوز **(من معبودٍ)** مع الله، بأيِّ نوع من أنواع العبادة.

(أو) من **(متبوعٍ)** في معاصي الله ويدخل في ذلك علماء السوء الداعين إلى الكفر والضلال، ويدخل كذلك الكهان والسحرة الذين يُتَّبَعون فيما يقولون.

(أو) من **(مطاعٍ)** من دون الله في التحليل والتحريم، بأن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله، ثم قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فإذا تأملت طواغيت العالم، فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة»[3] *.

---

(١) المتوفى سنة ٧٥١ هـ.

(٢) ذكره في إعلام الموقعين ١/ ٥٠.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٥٠.

والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عبد وهو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادَّعى شيئاً من علم الغيب،

فإذا عرفت ما بيّنه وأوضحه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في تعريف الطاغوت، تبين لك أن **(الطواغيت)** من الخلق **(كثيرون)** جداً، وذلك أن كل من تجاوز حده في الشرع، صار بخروجه منه وتجاوزه طاغوتاً.

رؤوس الطواغيت

(ورؤوسهم) أي: زعماؤهم بالاستقراء والتأمل **(خمسة)**:

أولهم: **(إبليس)** الشيطان الرجيم، وهو رأسهم الأكبر، فقد تجاوز ما أمر الله به وعصاه، وارتكب ما نهاه عنه، وهو الداعي إلى عبادة غير الله، فهو أول الطواغيت قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقد **(لعنه الله)** فهو مطرود مبعد عن رحمة الله كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

(و) الثاني: **(من عُبِد وهو راضٍ)** بتلك العبادة الصادرة من العابد بأي نوع من أنواعها، فهو طاغوت من رؤساء الطواغيت وكبرائهم، سواء عبد في حياته، أو بعد مماته إذا مات وهو راض بذلك، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(و) الثالث من الطواغيت: **(من دعا الناس إلى عبادة نفسه)**، كفرعون وأهل الضلال الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد، واتخاذ الناس لهم أرباباً من دون الله، أو الإشراك بهم في حياتهم أو بعد مماتهم، كما قال تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، فمن دعا الناس إلى عبادة نفسه وإن لم يعبدوه فإنه من رؤوس الطواغيت، سواء أجابوه إلى ما دعاهم إليه أم لم يجيبوه، لأن العبادة لا تصرف إلا لله، ومن دعا إلى صرف العبادة عن الله إلى نفسه فقد طغى وأتى بأعظم البهتان.

الكهان

(ومن ادَّعى شيئاً من علم الغيب) كما يزعمه الكاهن ونحوه، فهو الرأس

الرابع من الطواغيت، وما يزعمه كذب وخديعة على عامة الناس، قال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، فإن علم الغيب لا يعلمه إلا الله، لا تعلمه الملائكة، والأنبياء، ولا من دونهم من الجن أو السحرة أو الكهان، وهذا من تمام إحكام الخلق، وكمال الهيمنة، وعظمة الربوبية قال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الحكم بغير ما أنزل الله

(و) الخامس من الطواغيت: **(من حكم بغير ما أنزل الله)** كمن يحكم القوانين الجاهلية، أو بشيء من وضع البشر، وهو ليس من الشرع قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾، وقال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فالله عزَّ وجل هو الذي خلق الخلق، وهو أعلم بأحوالهم وأفعالهم، وهو الذي أنزل الأحكام العادلة التي تفصل في حكوماتهم ففرض على جميع الخلق أن يتحاكموا إلى شرعه ﷺ.

والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ

لا إكراه في الدين

(والدليل) على أن الله افترض على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله **(قوله تعالى:** ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾) أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، لكماله وقبول الفطرة له، ولأنه بيِّن واضح جليٌّ في دلائله وبراهينه، لا يحتاج أن يُكرِه أحداً على الدخول فيه، فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

ولا منافاة بين هذه الآية والآيات الدالة على وجوب الجهاد، لأن الجهاد مشروع لقتال كل من وقف في وجه الإسلام، أما أنه يلزم ويكره على الدخول في الإسلام فلا، لأنه (﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾) أي: ظهر وتميز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدى من الضلال، بالآيات والبراهين الدالة على ذلك، فإذا تبين الرشد من الغي فإن كل نفس سليمة لا بد أن تختار الرشد على الغي.

صفة الكفر بالطاغوت

(﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾) بخلع الأنداد والأوثان ويتبرأ منها ومن أهلها، فقد حقق الركن الأول من ركني التوحيد قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «صفة الكفر بالطاغوت أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها وتبغضها، وتكفِّر أهلها وتعاديهم»[١]. والكفر بالطاغوت شرط في قبول العبادات قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لا يكفي أن يعبد الله ويحبه ويتوكل عليه، وينيب إليه ويخافه ويرجوه، حتى يترك عبادة غيره والتوكل عليه والإنابة إليه وخوفه ورجاءه، ويبغض ذلك»[٢].

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٢٦٠.

(٢) شفاء العليل ص ٣٤٦.

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ . وهذا معنى : لا إله إلا الله،

معنى الإيمان بالله

(﴿وَ﴾) إن من (﴿يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾) ويفرده بالعبادة ويخلص له جميع الأعمال، فقد حقق الركن الثاني من ركني التوحيد، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: «ومعنى الإيمان بالله: أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم»(١).

فمن حقق ركني التوحيد وهما الكفر بالطاغوت والإيمان بالله (﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾) أي: تمسك (﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾) وهي: التوحيد، والعروة هي: موضع شد اليد، والوثقى هي: القوية.

(﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾) أي: لا تنفك ولا تنفصم، أي: قد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم، فمن تمسك بالتوحيد وكفر بالطاغوت وصل الجنة بكل حال.

(وهذا معنى لا إله إلا الله) فإن معنى (لا إله) كفر بالطاغوت، و(إلا الله) إيمان بالله واستسلام لأمره وشرعه، وبدأ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، لأن من كمال الشيء إزالة الموانع قبل وجود الثوابت *.

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٢٦٠.

وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة»

(وفي الحديث) الطويل الذي رواه الترمذي[1] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، وقال: كفَّ عليك هذا، فقلت يا نبي الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!».

الإسلام رأس الدين

(رأس الأمر) يعني: رأس الدين الذي جاء به النبي ﷺ هو **(الإسلام)** ـ يعني: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ، فمن التزم بها دخل الإسلام.

وأراد المصنف ـ رحمه الله ـ الاستدلال بهذا الحديث على أن لكلِّ شيءٍ رأساً، فرأس الأمر الذي جاء به محمد ﷺ الإسلام، فمن ادعى الاستجابة لله ورسوله وهو لم يقبل الحق ويدخل في الدين فقد كذب وافترى.

عمود الدين

(وعموده) أي: الدين **(الصلاة)** هذا فيه عظم شأن الصلاة، وأنها من

(١) رقم (٢٦١٦) ٥/ ١١ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

....

الدين بهذا المكان العظيم، وهو أن مكانها من الدين مكان العمود من الفسطاط[1]، فكما أن عمود الفسطاط إذا سقطت سقط الفسطاط، فكذلك إذا فقدت الصلاة، سقط دين تاركها ولم يبق له دين، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «وأما قوام الدين الذي يقوم به الدين كما يقوم الفسطاط على عموده فهي الصلاة»[2]، لأن مجرد ترك الصلاة كفر مخرج من الملة.

وهذا الحديث من الأدلة على أن من ترك الصلاة كسلاً فهو كافر، ومن الأدلة أيضاً على أن من تركها كفر قوله عليه الصلاة والسلام: «بين الرجل وبين الشرك والكفر، ترك الصلاة» رواه مسلم[3]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة» رواه مالك والدارقطني[4]، وهي من أحب الأعمال إلى الله، وأول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة، وهي التي فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج فلم يجعل فيها بينه وبين رسوله محمد ﷺ واسطة، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: «إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع» رواه مالك[5]، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتورث الخشوع، والخشية من الله *.

---

(١) أي: الخيمة، والفسطاط بيت من شعر. لسان العرب ٩/١٢٦، مختار الصحاح ص ٢١١.

(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٧٤.

(٣) صحيح مسلم رقم (٨٢) ١/ ٨٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) موطأ مالك ١/٣٩ ـ ٤٠، وسنن الدارقطني ٢/٥٢.

(٥) موطأ مالك رقم (٦) ١/٦.

وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

ذروة الدين في الجهاد

(وذروة سنامه) ذروة كل شيء أعلاه وأرفعه، والسنام: هو أعلى ظهر البعير، ومعنى ذروة سنام البعير: أي أعلى جزء في سنامه، وهكذا الدين ذروة سنامه وعلو أمره ورفعته وعزته هو في **(الجهاد في سبيل الله)**، قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «وهذا يدل على أنه أفضل الأعمال بعد الفرائض»(١)، لأن به صيانة الدين وحمايته، وبه دعوة الناس إلى دين الله وإلزامهم بالحق، فهو ذروة سنامه من جهة ما تضمنه من حماية الدين والدعوة إلى الحق.

فالجهاد هو أعلى وأرفع خصال الدين، قال ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ: «الجهاد لا يقاومه شيء من الأعمال»(٢)، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: «لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟!» رواه البخاري(٣). وذلك لأن فيه بذل المهج التي ليس شيء أنفس منها، فيبذل مهجته، ويبذل ماله لظهور الدين وتأييده، ولما فيه من جهاد الكفار والمنافقين، فبذلك استحق أن يكون من الدين بهذه المكانة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وقد جاءت نصوص عديدة في فضائله وما أعد الله للمجاهدين من عظيم الثواب، كقوله ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/١٤٦.

(٢) شرح الأربعين لابن دقيق العيد ص ١٦٩.

(٣) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٣) ٣/١٠٢٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة» متفق عليه[1]، وقوله ﷺ: «غدوة في سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها» متفق عليه[2].

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «والجهاد عمل مشكور لصاحبه في الظاهر لا محالة، وهو مع النية الحسنة مشكور ظاهراً وباطناً، ووجه شكره نصره للسنة والدين»[3].

وقد أعد الله للمجاهدين درجات عالية في جنات النعيم، قال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» رواه البخاري[4].

والجهاد ركن من أركان الدين، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله»[5]، وهو برهان إيمان العبد إذا صدق فيه مع الله، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «الصدق في الإيمان لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله»[6].

---

(١) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٥) ٣/ ١٠٢٧، وصحيح مسلم رقم (١٨٧٨) ٣/ ١٤٩٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري رقم (٦١٩٩) ٥/ ٢٤٠١ من حديث أبي أيوب رضي الله عنه، وصحيح مسلم رقم (١٨٨٣) ٣/ ١٥٠٠ من حديث أم حارثة رضي الله عنها.

(٣) الفتاوى ٤/ ٩.

(٤) صحيح البخاري رقم (٢٦٣٧) ٣/ ١٠٢٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الفتاوى ١٠/ ٣٠٠.

(٦) الفتاوى ٣/ ٢١٢.

والله أعلم، وصلى الله على محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

ثم ختم المصنف ـ رحمه الله ـ هذا المصنَّف العظيم بردِّ العلم إلى مَنْ أحاط بكلِّ شيءٍ علماً فقال: (**والله أعلم**).

ثم صلى على خير خلقه بقوله: (**وصلى الله**) أي: اللهم اثن (**على**) نبينا (**محمَّدٍ**) في الملأ الأعلى، (**و**) اثن أيضاً (**على آله**) وهم أتباعه على ملته، (**وصحبه**) أي: صحابته الكرام، (**وسلم**) عليهم، أي: اجعلهم سالمين من الآفات والشرور والمكاره.

نسأل الله أن يجعلنا من عباده الموحدين، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً *.

❊ ❊ ❊

الفهرس

للتوزيع

هاتف : ٠٥٠٥٤٤٣٢٤٨

للتوزيع

هاتف : ٠٥٠٥٤٤٣٢٤٨

